

عمرو العادلي

رحلة  
العائلة  
غير  
المقدسة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

إلى من تحمّلت سخافاتى وجنونى  
دون أى مُقابل

زُينب

حين أتحدّثُ في الحاضر يُعنيّ الصدى في الماضي.

مالك حداد

تبدو حزمة بيوتنا من بعيد كذيل كلب، معوجة وتمشي مع شط  
الرشاح أينما ذهب، أراها من أول الشارع كقم ثعبان خرافي يتأهب.

اليوت كلها من دور واحد، متلاصقة، بعضها مبني كله، وبعضها  
نصفه، وبعضها مهديم كما لو تعرض لقصف مدفعي، مونة البناء خليط  
من طين سودته حرائق القمامة، ممزوج برمل خشن وروث، ملوحة  
المطر أكلت حواف بعض القوالب وحطمت البعض الآخر، زوايا متأكلة  
وشقوق متسخة، لم تمسحها منذ رصها يد المونة بين الصفوف بارزة،  
ثابتة على الوضع الذي كانت عليه وقت البناء. وعبارات بطوب حراري  
مميز، تُعبر عن هتافات صاعنة لأصحاب البيوت المجازية..

«الله أكبر.. بسم الله الرحمن الرحيم.. محمد».

تمسكني أمي في يدها، أدوس على الأرض بيخفة، أقفز كعصفور يعلم  
يقيناً أنه مخلوق للطيران وأن الأرض ليست مكانه. أعرف أن اسم أمي  
عائشة، ولا أتخيلها إلا «عيشه» كما ينطقها الناس وينادي عليها أبي.

في الطريق للبيوت مواسير صرف كثيرة مظلّة بالقمار، لم يحن دور  
استخدامها بديلاً عن المصرف المكشوف، ملقاة بإهمال على جانبي

الطريق الضيق، كبيرة ونائمة في سكون، يكفي ارتفاع الواحدة منها وقوف إنسان بالغ، المواسير عامرة بكل أنواع الخضروات الذابلة والقواكه المعطوبة التي أوشكت على الهلاك، يلقي السريحة الصغار بمخلّقاتهم، بضاعة لا تساوي البيات فوق عرباتهم، يتخلّصون منها في ذبل نهار شاق، بعد أن يستبد بهم التعب وتُجهَد حناجرهم من النداء على بضاعتهم.

يفكُّ صاحب العربة الصغيرة «العريش» عن حمار منهك، يرفع صندوقاً خشبياً يزيد قليلاً على حجم كتبه، يفرغ محتوياته من بضاعة تالفة في فوهة الماسورة، يمر فارزو المخلّقات، يدخلون المواسير، يجمعون ورق كرتون مبتلاً بطيخ حامض أو يلملمون علب سالمون فارغة ويستلّات واقع قعرها أو مقبور صوانها. يعيشون في أجولة زجاجات الزيت الفارغة وعبوات الصابون والشامبو، يجمعون كل ما فُدغ أو كُسّر من مستلزمات، يمكن إعادة تدويرها لنفس الشيء الذي كانته قبل الفناء الأول. وما يفيض بعد ذلك يكون من نصيب سيارة زبالة كبيرة، تنفجر رائحتها ويستحيل تجنّب شَمّها، تخرج من أجوائها عطناً ومن أجنابها دوداً، بكسل وبلادة، يتجوّل حولها عمّال بملايس مَسْخَة كانت في الأصل خضراء، رائحتهم مقدودة من رائحة ما يتبقّى يومياً في أحشاء المواسير.

تلمح أمي عربة صغيرة تحطّ حمولتها في فوهة إحدى المواسير، تنتظر قليلاً وتتابع الأجواء من بعيد، تصنّع عدم النظر للسريح الذي يتخلّص

من مخلّقاته بلهوجة، تتظاهر بمساعدتي في ربط حذائي، ولكنها تابع ما علق بالصندوق الخشبي، يركل السريح بضاعته الذابلة بعصبية، يقرص الحمار فتعبل المخلّقات على ملابس الرجل، ينفض جلبابه بضيق، يسب للعيشة ويلعن الحمار الواقف بعيداً عن العربة يجب بمنخريه التراب. يلبس بالطور رمادياً خشبياً ابتل وضاعف المطر وزنه، قُبّة رأسه تسبّجها خِرقة قذرة لا لون محدد لها، ملفوفة أي كلام على إطار تظهر من مركزه صلعة. ينتهي الرجل من مهمته، يُعلّق «العريش» على جنبتي الحمار، يركب على حافة صندوقه فيُهدّ الثقل عزم الحمار وتخور قواه، خبطة واحدة من خشبة غليظة على ظهره، يعود بعدها لصوابه وتتصبب قوائمه، يرمح بصاحبه ويختفيان في زحام الناس وغيش الغروب.

تقرب أمي من فوهة الماسورة، تناثّل المحتويات. خيار نصف فاسد وحزم سبانخ لم تزل كعوبها وأنصاف عيدانها صالحة للطهي، وبعض أصابع موز سوداء مرخية. تنظر يميناً وشمالاً، تتبع الناس من حولها قبل أن تعبى محصولها اليومي مما فاض عن حاجة الآخرين، كانت تفعل ذلك يومياً حتى صار أشبه بحفرة، تبحث في مخلفات تألف الحيوانات شَمّها. تتحسس رؤوس أصابعها أولاً مدى الصلاحية، تتفحص البضاعة بيد خبير، تقوص أصابعها للتقي ما يصلح لأغراضها، أو ما يصلح نصفه، تريض في قبوها قرابة الساعة وهي جالسة على قرافيصها، تُخرج من سيالة جلبابها الأسود شظية بنفس اللون، تفتحها وتبدأ عملية التعبئة، تحلّي الشظية ويتعلّد عليها حملها، تقاوم حتى ترفعها فوق رأسها. تلمح

بعض تفاحات يمكن ضمها للحصيلة وهي لاتزال في القبو، تفرد جزءاً من طرحتها السوداء قبل أن تقوم من مكانها، بيد واحدة تضع التفاحات على نسيجها الخفيف، وبالأخرى تمسك الشنطة الكبيرة، تشغل يداها الاثنان بالأحمال، لم أجد لي دليلاً إلا طرف جلبابها فأقبض عليه، أنشبت يديها ونمشت تحت المطر لمسافة طويلة.

قطرات المطر تفرّقها الرياح، تسقط في مجرى المصرف، وعلى الشاطيء، يُعجن الشارع الضيق، السحاب من فوقنا محتقن وخيوط المطر تلمع ثم تنكسر فوق البنايات، البيوت مبيّنة من دور واحد، يدقّها البرق، يتقاذز فوقها بخيوط طبائير متعرجة ومشعة.

أثناء سيرنا تلمح أمي عن بُعد ورقة ملفوفة أمام ماسورة أخرى، تقترب منها، تجسّسها بيوز جز منها البلاستيك، يقوص المجس في اللقافة كأن بها عجيباً خمران، انهمار المطر ينثر الورقة، تدحرجها أمي بغضول مساقعة لغتين، لم تنفتح الورقة التي تقطعها، بدافع الاستكشاف تُنزل حمولتها، تنفّخ اللقّة المبرومة، تحرق عظمة مدببة الورقة المكزّرة، تدقن أمي فيها أكثر، يظهر المكنون من اللقافة الطرية التي يؤشها المطر، حوالى كيلو لحم ملفوف في ورقة بيّنة سميكة. وقتت وفي رأسها تدور أفكار وهو أجنس، من الذي رماه؟ لابد فاسد... أو سقط من شنطة مقطوعة. عند امتداد الطريق للبيوت يقع سوق الخميس الكبير، بعده بقليل مسجد الحرّة الذي يُفرّقون فيه الذبائح على الفقراء والمحتاجين، لابد أقلت من شخص سئ الحظ. وهل يرمي أحد لحوماً في مثل هذه الأيام الضلت؟

رفعت أمي اللقبة ودست فيها أنفها، تنحّصتها، دققت النظر وأرهفت الشم لكي لا تسممنا، بلاها أكلة، كانت الرائحة عادية، اللحم في حالة ممتازة، رائحة ذبيحة لم يرد دمها بعد، اتخذت قرارها سريعاً وهنّت يلقها ثانية وإضافتها إلى أعباء المشوار.

عوّدها القصر الدائم اتخاذ القرارات بسرعة، فلا اختيارات قليلة، لا يوجد ترف المفاضلة والتعزز.

الطريق إلى البيوت على ضفة الرشاح لم يكن طويلاً، ولكن هناك ما يجعله بطول، فالشارع لا يعرف الأسفلت، فقط طريق ضيق دكت الأقدام نصفه، ودقته قوائم الدواب، والنصف الآخر محجوز لأكوام قمامة تناطح أعلى البيوت طوياً، وتنخطاها أحياناً. تبدو الينايات القصيرة كمساكن للأقزام، تخبئها جبال سوداء وتبرك عليها من كل اتجاه، تحترق ذاتياً طوال الوقت، تتجمع فيها حلقات أدخنة دائمة، وتنمو بين أحشائها خنافس وأبراص وحشرات هجين بين أنواع المخلوقات. والجمادات كذلك، تتكاثر وتنتج جمادات جديدة مختلفة عن الطور الأول. أما الرصيف فهو مجازي، طابور شبه منتظم من أحجار بعضها مفدوغ وبعضها مهشّم، تقطع الطريق الواصل للمجرى المائي الثقيل، مرشوق بينها عمود نور يتيم لا يضيئ.

يهون الطريق عندما تصل أمي إلى دكان «أبو سوريا» بائع الدقيق، رجل أحمر الوجه متفخ الأشداق، يربط بطنه دائماً بشريط أبيض لامع، ينفخ كرشه وهو يتابع المطر من فوق كرسيه المعصوب بدويار الأجولة. بجواره دكان الأطرش، دكان بقالة وحيد وفقير، يُعلق صاحبه أكياس مسحوق الغسيل فوق جبل على باب دكانه، كمتبردين من العصر

المملوكي. ملاصق له دكان خياط، دائماً يحاول قطع فتلة بأسنانه، يدق في المارة طويلاً كما يدق في حُرز الثياب.

إضاءات قليلة تظل من النوافذ، شاحبة كأنها تستعد للنوم، وأمام البيوت كlobيات ترتعش، تلتفظ أنفاسها الأخيرة.

حدود الشاطئين لم تكن واضحة؛ إذ يزيد عرض المجرى المائي أو يقل حسب قدرة المياه شديدة الملوحة على الفتك باليايسة وإخضاعها للذوبان في الماء الأخضر. أمّا بيوتنا، فلم تكن بيوتاً بالمعنى المعروف، كانت بنايات يقولون عنها مجازاً «بيوت سويسية»، حزمة مساكن متلاصقة، من دور واحد تقارب العشرين، تمتد في طابور معوج على شط المصرف، بينها وبين الرائحة النفاذة أقل من مترين، بعضها لها أبواب طويلة بشكل مبالغ فيه ولا تتطابق مع الحلوق، وبعضها بأبواب فلكلورية لا تستند إلى أي مقاييس، قطعة خشب من هنا على قطعة صفيح من هناك، وبعض البيوت تكفي بستائر ثقيلة ومتسخة دائماً. تتفاوت مساحات البيوت طويلاً وعرضاً، وتتفاوت أيضاً مستويات القاطنين فيها، فمنهم كمسارية في هيئة النقل العام أو موظفون في مرقق الصرف الصحي، وأغلبهم حرفيون من طائفة المعمار.

تعرف أمي أنها اقتربت من البيت عندما تشم رائحة حرق القمامة، أدخنة تزكم أنفي وتضرب رؤيتي، تستقر بقايا الروائح في قاع مخي فتدع عيني أثناء النوم، أما عن المصدر فهما اثنتان، أكوام القمامة الملقاة برغبة الناس حول البيوت كأنها تغلفها، والمصدر الثاني هو مستودع للقول،

سباح بطوب من الطين على مساحة قيراطين، مُسقَّف بمواسير وزوايا حديد بها فتحات لتحرير الدخان والصهد.

بالقرب من بيتنا، تتجول عربات كارو صغيرة، الواحدة منها في حجم كتبة ومعلّقي فيها جحش، يرمح بها سائقوها الأطفال في اتجاه سوق الخضروات، يحملون بقايا بصل وينجر وعروش كرتب وخس، يُلقون بالحمولة أمام أغنام تتجول حول البيوت السويسية، يلتهم القطيع محتويات العربات فيزيد وزنها، وسعها.

أحمر وجه أمي من المجهود والبرد، الأحمال قاسية مقارنة بطول المشوار، وصلت إلى مصطبة بيتنا بعد أن تغلّبت قدماها على زلقة الطين طوال المسافة. رفست الباب المتداعي ببوز جزمها البلاستيك رفسة خفيفة فاستجاب للطلب سريعاً، الباب له إطار من خشب، وقلبه معمول من أبلكاش مختلف السمك والألوان، مرقّع بمسامير ومُطعم بقطع زخارف دخيلة لا مكان متنع لها، مدقوق فيه صفيح مفروود من علب سمن كبيرة وصدقة، مفصلاته معوجة ومائلة على جنبها كلسان ذبيحة، كلما افتتح الباب حك كعبه في الأرض، وشبك حلقة في طرحتها. دائماً تقع طاقة أبي وهو داخل، التعود جعله يمسكها كلما عبر الباب القصير، حتى ولو سينحني، فأبي طويل والباب عمولة، هو الذي صنعه في ليلة صيف، أو بالأدق جمعه، أخذ مقياس طوله بالتمام ونسي أن يضيف إليه مقياس الطاقة.



في مواجهة الباب مباشرة، صورة متوسطة الحجم لأبي بالزي العسكري، بجوارها صورة كبيرة لفلاح يصافح الرئيس جمال عبد الناصر بيد، وبالأخرى يحمل ورقة ملفوفة، ثم صورتان ملطوختان على الحيلة لجدي وجدي، برازين صغيرين، واحد لعجوز بوجه محتقن كأنه يعاني من إمساك، والثاني لرأس مستدير ومحجّب، مُعلّق فوق زاوية مسبة قديمة، تظلل شراشيها فوق الملامح الباهتة.

وقعت عينها بعد البرايز المعلقة على كرسي متحرك متآكل، توقفت بأحمالها أمام قطعة اللحم المتكومة فوقه بلا حول ولا حيل.. أخي الأوسط، أنس.

كان له من اسمه نصيب، فهو نصف إنسان، رأسه يحيا على أنقاض جسد افتراضي لا ينمو، الجزء الحي فيه يفعل الشيء وعكسه في وقت واحد، يتشم ويكشر، يحزن ويفرح، أربعة عشر عاما وهو يحيا داخل جسد عليل توقف نموه عند عامين، والرأس ماضي في النمو وحده، استأثر بالروح وطعم فيها، حرم منها الجسد الضامر الصغير، جذع في حجم سقانة وذراعان تشبهان ملعقتين، ورؤوس أصابع صغيرة لا تزيد أطولها على عُقْلَة، تحفر في الهواء بشكل دائم، كأنها تنقب عن شيء غير مرئي أو تقلد قنديل بحر، رأسه يتحرك بلا ضابط أو مركز، وأصابعه تهيش كل ما تطول، أما ما تبقى منه فهو ساكن ومستقر.

يجلس أنس طوال الوقت على كرسيه المتحرك الذي لا يتحرك، لا يربطه بالكراسي المتحركة إلا الاسم، إطاراته صدئة ومغروسة في

الأرض اللزجة، عجلاته مملختان وجلده كالحق ومقشور، مسنده معوج والأسفنج يطل من بين طعنات طولية في الجلد، كل بضعة أيام يفقد من حشيتيه جزءا، سقانة القدمين مربوطة بسلك تسليح، هو لن يحتاجها على أية حال، فلا أقدام له تقريبا، فقط جذع صغير مبروم في لُفّة بفتة يتم تغييرها مع مواعيد الطعام القليل، تعتي أُمي بمظهره ونفاثته، تتوقف كثيرا أمام براءته التي لا مثيل لها، فالوجه لصبي على مشارف الرجولة، وكل ما ينتمي له بعد ذلك كأنه يخص رضيعا في أيامه الأولى، جسد ثابت أغلب الوقت، كأنه كماله للعجلتين المملختين. اشترت أُمي الكرسي من سوق الخميس كما تشتري كل شيء في آخر النهار، لابد آخر النهار، فدانما بضاعة عُقب السوق رخيصة.

تغسل أُمي وجه أنس كل صباح بماء دافق كدمعة العين ثم تغتر له لُفّة البُفّة، وتطمئن بين الحين والآخر على أعضائه التحتانية، تنظفها من القدرة لتقيه انتهاك الحشرات، تأكد من سلامته ثم تعيد برمه من جديد، تحبك حوله القماشة لكي لا يخترقه برص مباغت من بين أعواد الغاب، أو يتسلل إليه ثعبان من بين شقوق التعريشة.

تضع أنس بعد ذلك على كرسيه، تلاعبه حتى يبتسم، فهو لا يتكلم، لا يسمع، يحتفي بلبقته وكائناته في عالمه البعيد، أصوات مناغاة لا معنى لها إلا عند ملاكه الكبير، أُمي، فميل رأسه على جانب واحد معناه أنه يريد حلك جزء من جلده في نفس الاتجاه، وفتح فمه مرات متتالية بأصوات من يرتاح من إجهاد معناه حلول موعد الطعام، وزفيره المتقطع ضيق من

حرارة الجو، أما لو صرخ صرخة مبحوحة فترفعه أمي وتحضته، تُقبله وتضعه مكانه مرة أخرى. قاموس طويل من التعاملات المتفق عليها بينهما، قاموس عماده الإحساس، لا حفظ الكلمات واستدعاؤها. ورضيت بالقضاء وتعاملت مع المسألة بصبر وسلام.

أسراب الذباب ترتع في محيط أنس على شكل حلقات، تهشها أمي بيدها العفّة، تجذب فوق وجهه طرحة خفيفة تتدلى أطرافها دائماً فوق مسند الكرسي.

تدخل إلى عمق البيت، تُقبل عليها الدجاجات والكتاكيت، تستقبلها فيما يشبه الزفة، تلف حولها دائرة وتناجيهما بأعين برينة وحركات متشجّجة، تحط حمولتها وتجلس لتستريح فوق حجر كبير ومربع له استخدامات عديدة، فهو محطة للراحة داخل البيت، ويستخدم لتكسير الدوم ونوى المشمش وسحق مخلوط الفلفل وسن السكاكين، وأحياناً تقف عليه لتبسط نسيج العناكب أو مطاردة صرصار شارد يشبب حمام.

### 3

تبدأ أمي في تفريغ شغلها السوداء من محتوياتها، تشغل قليلاً مع لافافة اللحم التي لم تزال تشك في صلاحيتها، تشعل الوابور، تسخن قليلاً من الماء في كنيكة بلا يد، تقطع من اللحم سلخه صغيرة لا تزيد على مقدار قضمه، تلقيها في الكنيكة وتنتظر الوصول لدرجة الغليان، تتحوّل المياه في الكنيكة لشورية، تمد ملعقة وتسحب قطعة اللحم تنفخ فيها حتى تحتمل تذوقها:

«هيّ يعني موته ولا أكثر؟»

نقول لنفسها ثم تدفع بقطعة اللحم إلى فمها، تقبلها على جانبي الطحن، تقول:

«والني طعمها حلو».

تنتهي من مضغها وبلعها، تنتظر أن يحدث شيء، يدور رأسها قليلاً، المشوار مجهود والبرد الشديد يُشجّع على النوم، تنأب ملء فيها، تستعبد بالله من الشيطان وتكمل ما بدأت، تضع اللحم كله على النار بعد أن تغسله جيداً، لا خوف منه ما دامت جرّيته وربنا عداها على خير، تبدأ بفرز وتنظيف محتويات الشنطة السوداء استعداداً لمجيء أبي من قصر العيني وأخي فتحي من المدرسة.

## 4

أنه التحصير للأكله المعيرة، أسرح في ملامح أمي، أنخيل نفسي أعطس في بشر ذكرياته. لكني لا أستمر فيه طويلاً، فدأبته مليئة بالكروب، والسواد يجور فيه على كل الألوان، حكاياتها التي خصّنتي بها كانت تشكل ما أسميه الآن ذكريات، ساعدت على تكويني أكثر من الأحداث نفسها، كانت دائماً تقول لنا:

«عَيْتْه ابيضَّتْ على ما شُفْتُكم»

رصاصا بأنس نعمة من ربنا، فقيرها لا تطول ظفروها، وهي نفسها داحت عند الأطباء شوطاً وعد المشايخ أشواط، زهق أبي وسب للعيال واللي عاورين الحلقة حمس مسوات وشهم في وش بعض، ملأت سوائله عشرات من أنابيب الاحتيال، رقت أمي من كشوف الأطباء، وداحت عند العارقات بأموز الحلقة ودهاليرها، كل العيال سقوط، عند الشهر الخامس لا يكتمل لهم نمو ولادة الداية فاسية ويموت الولد، ويطوِّح أمي الأدوية التي اشتراها لشيت الحمل فوق أسطح البيوت بعد أن يصدله الحصر، ولادة المستشعي أريح، أكثر تكلفة وأقل مشقة، ولكن الولد يموت أيضاً، ويقذف أبي بالأدوية فوق سطح المستشعي بنس الطريقة.

قبل أن تستكمل أمي راحتها من المشوار الشاق، اكتشفت ما جعلها فرّت واقفة، الديك. أين الديك الشركي؟ تمسّط البيت الصغير، تتخطى سورة القصير المظل على المصرف مباشرة، تصل إلى أعواد الغاب التي تفصل بين البيوت المتواصعة ومجرى الرشاح، المياه الهادره تسبح فيها قادورات وحيوانات نافقة متنفخة الأبدان منفجرة الأرجل، ينهشها ذباب أحصر، تفرغ الجثث وتحك في الغاب القوي، تحف في نبت شيطاني قرطاسي الساق كأغصان السيف.

تقف أمي حائرة، ربما احتباً الديك في محبة القرن؟ كانت سنشويه حثاً يعبر عمد منذ أيام، وجدته محتباً من الصقيع والمطر، مدت عصا ملقاة بجوارها، نحش عنه بحرص لكي لا تخدشه علم تجده، جثت على ركتيها وبطرت للتأكد. نط الديك من بين أعواد الغاب، قفز وهي همه عشية صغيرة، هشته أمي بيدها لينضم إلى صريره.

ملأت كفها حثاً من علة صفيح ورفته على الدحاجات بالتساوي، بطرت يدها على شكل مروحة فقشرت الفراريج ورها الديك يعرفه الأحمر المنتصب وهو يقي الحب بكرياء تنجّعت حولها عصافير رمادية صغيرة، أكر قليلاً من إلهام، حطت فوق رؤوس أغاب، ثم نزلت تشارك الفراريج والكتاكيت بقر الحب، حركات البقر متشجعة، ولكها توحى بظمأنية مريحة للطيور ومذاجة محبة لنفوس المرئين.

على شاطئ الرشاح، يجلس جدّي طلبة فوق قفص جريد، يمد حبله نه نقالة، يُخرجهما ويقبس عمق المصرف، يلمح أمي فيترك ما في يده ويدخل

العيال تموت واحداً بعد الآخر، ولكنها فرحت، جاءها المحاض في فتحي، وأكمل عائلاً، هو أول عيالها الذي يدور عليه الحول.

أنتم فتحي أحي ثلاث سنوات، وقبل أن يحب لس الرضاغة من على شمتيه جاء أس، وكان سبباً جديداً في معرفة أبي بأعلى المستشفيات، أصابه فيروس عريب جعله على هذه الحال، من أجل أس صنع أبي رفاً خاصاً لمرض أدوية لم تساعده على النمو، ولم تُغير جلغته التي وُلد بها

بعد ولادة أس عام واحد، أبحث أمي طملاً له رأس كبير وجذع صغير، لكنه بلا أطراف ولا فتحة شرج، مات قبل أن يتم أسوعين قصاهما أمي مرة أخرى بين طرقات المستشفيات، اقترح أمي على أبي أن يخلع اسم أحي الميت علي عندما وُلد، لا أعرف هل من قلّة الأسماء أم خوفاً من الحسد؟

عندما كنت أصبح كسائل لم يتم استخلاصه بعد من جينات الغيب ومراح الحضة، اكتفى أبي بصحي واستعوص الله في أسس، حذر أمي كثيراً بأن طلاقها مرهون بحملها للمرة الرابعة، لم يتخيل نفسه محملاً عيلاً معوقين، فتصحح وطبعته هي فقط إطبامهم وكسوتهم، وتصحح مهمتهم الوحيدة أن يحلوا وسره في مصاريف العلاج واللف بين أقسام المستشفيات، أو التوصل للأطباء في قصر العيسى. كان يهرب من المسؤولية عن شخص آخر يشبه أس أو أحي الرضيع الذي مات وحملت اسمه، عظمت بذرتين ويمكن للسلة كلها أن تخب.

أحاول تدكر أول حيط شكل المراحل الأولى لإداركي، كنت كمن يبحث عن دئوس في بركة متى بدأت حكايتي، كيف تعرّفت على من حولي؟ أفضل في إيجاد بداية مقبلة لمرحلة تشكلي العملي، بعد تفكير طويل أعثر على أول الخيط في حكايات أمي، أسمعاها أولاً، ثم أصغي على ما تقول مسحتي البخالية المعتادة.

تُعدّل أمي من وضعها، ترتب ما مستقوله لأبي بتسقي يناسب خيالها، ووسائل تنظيم الأسرة لا تزال في حيز التجريب، لم تكن أجهزة الإعلام قد نجحت بعد في إقناع الناس بمدى جدواها. كان الشريط يؤلم أحشائها، وضعت بعد ولادة أخي الذي حملت اسمه فيما بعد، لم يكن لأنم هو السبب الوحيد لجلعه، ولكنها صاقت بأن يكون لها ابن فقط، واحد منهم لا يدخل في حسابات أبي، فهو لا يعترف بوجود أسس من الأسماء.

فكرت أمي في طريقة تستعصي بها من غياهب الظلمات إلى قصة البداية فتقدت الحيلة لا تردد

تخلع الشريط أولاً دون علم أبي، يمر شهر بعد شهر، تخفي عنه أن العوائق أزيلت من طريق رحمها، وأنه يمكنه الآن استقبال بذرة بني آدم حديد تحط الكحل وتقرص حدودها، تقرر مصارحته، يبدأ الهاجس في العمل لتقاتلها، حتى قبل أن تمنح فيها بكلمة تُجري بروفة أولاً بينها وبين نفسها، تقف أمام امرأة التصرحة المكسورة، تكوّر بطنها قليلاً وتجمع بمقدار طوق، تحسنت جيداً جلدها، الذي بدأ يمتط قبل أن تؤلف

الكلمات التي ستلقبها على مسامح أبي معد قليل، تتحلى بكثيرته عندما يسمع كلمة «أنا حلي»، ترفع أشياء مكوّمة من على التسيّرة لتتحلّ تسكّلي في استدارة بطنها، تُردّدها وبين بعضها الكلمات التي دثّرتها، تحدد الطريقة التي ستلقبها بها، تملّس على بطنها في طوره الجديد، تتحلى أبي ملامحه القاسية «حسزل يعني حيسزل»، تستخدم أقوى أسلحتها منذ البداية، تبكي.

يدخل أبي عليها، تسرّ الذموع في فمها فلا تمنعها، يجلس بجوارها:

«مش عارفة أقول لك إيه يا خويا والنبي»

تعاود البكاء بصوت منغم وتضيف يحس ناعم:

«مش عارفة بقي دي نعمة ولا نقمة؟»

يقترّب منها، كان على وشك أن يلغم الطعام، وإمعاناً في حك الدور الصعب تتابعه بنظرات داعمة، يضمّها أبي، يرسّ على كتفها، يتأمل كحلها ويشمم عطرها، يتعلّلها أن تحكي له ما يصايقها ويحربها.

«كنت وأخلة بالي أوي وعاملة حسابي يا خويا. لكن حصل».

يردّ أبي سبرة من يتوقع ما سيسمع، تترلق يده عن كتفها، يسألها ملامح تتحوّل تدريجياً للشكل الذي تحشاه أبي وتعمل حسانه

«هو إيه اللي حصل يا عيشه».

أصبع واحدة بمسح دمة منفلته، تعاود الحركة برقة، تُعدّل جلستها وتُنظر في عينيه مباشرة، تقول:

«الشريط اتزحزح. أمر رينا بقي. والنبي ما تزعل نفسك ياخويا».

تحتاج أحياناً الكلمات الحاسمة لإعادة الترتيب من جديد ليتسع لها جيداً، يتجهّم أبي للحظات، تتابع أبي تغبّرات ملامحه تتحزّز، تشعر بكل هموة تحوّل، لكنه سرعان ما يُبدّل التحمّم بانتسامة مكتومة تخشى أن تطلق:

«وماله. أمر الله. ولا راد لقضائه. هوّ العبد بإيده حاجة».

قال ذلك، فلم يعطها الفرصة لتكمل التمثيلية، لم تصدق أنها نحت بي واقتصصي يصرار عرب، لم تكمل أبي الحكاية، تسبّمت وقالت:

«ضحك وسنانه بانت. أصلي مشوفهاش غير كل فين وفي».

أضاف بين كلماته في تلك الليلة البعيدة ما أسعدها ويصح عليها:

«إوعي يا عيشه تشيلي حاجة ثقيله لعبيه لمارسا يُجبرك بالسلامة».

لم تُصدّق أبي أنه انتفع، أطمع بهذه السهولة، قالت إنه يداري عصه لأن رسول العبل سيصعب رب. تدبّد طوبها يوم سوعي، ذهب أبي بفرحة ونشاط لعمي المبسور، استدان منه ثمن عشرة كيلو لحمة دومة واحدة، جاءت خالاتي وعمّاتي وأقارب آخرو ليحتفلوا بي، كانت ليلة أشبه بالمولد، أكل الناس وانسطوا، وظلّ الاحتمال خالداً في ذاكرتهم حتى وقت قريب.

تركسي أمي وأنا مسارح في حمولة الذكريات، قامت بهمة من تأخر على موعد، شطفت العوالة، ملأت نصفها فولاً ونصفها ماء، كان الظلام قد بدأ ينسحب تدريجياً على صفّ النيوت فأبارت اللعبة الجار وعلّقناها في مسمار كبير، ثم لفّت شريطها المشتعل فأصبح في صوة شائعة، نشتت العوالة فوق اللمة، الكاد يحفها الضهد، تأكدت من يمكن اللمة والعوالة بما لا يعطي فرصة ولو صعبة لوقوع إحداهما كانت هذه هي طريقته المحفوظة لتدميس الفول، تترك السحونة الصعبة لليلة كاملة، تأكل الفول وتُسليه مع الماء، وفي الصباح تعصر فوقه الليمون، وترش الملح أبو كمون، والشاطر من يلحق لحسة في قعر الطبق.

## 5

أصبح اسمي على اسم أخي الميت، تزوره أمي في المقابر أحياناً وتأخذني معها، اسمه الكامل هو نفس اسمي الكامل وهناك شهادة وفاة في أوراق أبي تثبت وفاة نفس الاسم رباعياً، كان شيئاً مرعاً لي وأما طفل يقابلني أحد أقربائي ويقول لأمي:

«ربنا يعوّضك وي طرح في العريس ذا البركة بدل اللي راح».

يقترّب مني ويمسّ على رأسي أشعر بأنني بديل عن أخي الميت الذي لم أزه ولا توجد له صورة، يشتعل خيالي في تصورات مختلفة لملامحه، أوسم له صورة الشخص الأصلي وأنا أنوب عنه، أعيش بدلاً منه، أو أتم حياتي المفقودة بلا ذنب اقترفته، كل ما هنالك أنني وُلدت وأبي وأمي متأثرين باسم لم أر صاحبه أبداً. كرهت اسمي منذ البداية، ولم أعد أحب ذكره.

كر فتحي الآن وأصبح من السهل على أمي أن تدمع رعب شاربه الحفيف. كنت ترى في بياض بشرته نعمة من ربا وكأنه ابن دوات، يعطر مربى ويتغذى «لحم وفراخ» ويتعشى «بيض وزبادي ويقسماط»، لا تصدق أمي أن عوده الذي يسلك طريق الرجولة، وبشرته البيضاء

نَحَتْ من خضروات دالة وهاكه تسرَّب إلى أسنحتها الحمص، ولحوم «عَلَقِيَّة» وشورية عظم وهاكل فراح، ومن قول مدَّس تطيه في العوالة على اللمة الجار ليلة كاملة، أو لس معروح بثلاثة أصعاف ماء، وأن فطوره عائلًا كان بيصًا اشترحت قشرته فأطبت من البيع، وتم فقهه في سمع أو خلطه بطماطم طرية من عُقب السوق، مع محلات بيتي وميش قديم وبصلة مدشوشة لم تصدَّق أيضًا أن عقله الذي حاب في الإعدادية 88/ تنه من نفل شاي يسليه الماء المعلي فيصنع دوريس محترمين وأحيانًا ثلاثة، وأثمان القهوة التي تسيلها له وتعملها بوش في أوقات الامتحان. كاد فتحى الأعادي وكان أول واحد يدخل ثانوى عام فى تاريخ العائلة

بحسب فتحى في الإعدادية، ونظمت له مدرسته احتفالًا يليق بالمتفوقين، فرح لأن اسمه سيوضع في لوحة الشرف، وفرحت لأنني سأذهب معه وأراه وهو يتسلم شهادة تقدير، ولكن المسألة كانت بالنسبة لأمي مازقًا كبيرًا، فلا بد أن نقص شعرنا دون أن يكون العيد على الأبواب، أحدثنا أمي عند حلاق فقير المطر، ودكناه كذلك أيضًا، كرسي حشب ومراة مكسورة ومقص ومشط هي كل محتوياته، كان الحلاق عجوزًا أخوَّل بلس حلماتًا متسحًا وششب بلاستيك، أول ما رأنا تقرب من دكناه، أمسك بفرطة ونفض الكرسي ووقف بجواره.

«عايزة أحلق لهم يا عم».

قال أمي، وانتسم الرجل ابتسامة عريضة أظهرت في فكه العلوي نابًا واحدًا:

«متأخذ كام؟»

رفع الرجل كتفه أمامها وأخفى عنها إصبعين:

«ثلاثة جنيه على الاثنين».

نمسك أمي بكتف فتحى قبل أن يجلس على الكرسي، توخَّ كلامه للحلاق:

«هُمّا اثنين جنيه حلوين. دا أبوهم يقبض خمسة وثلاثين جنيه في الشهر يا عم»

يجلس فتحى على الكرسي وأنتطره أنا وأمي، بدأ الرجل الأخوَّل بحث قصَّة أخيه من مبيتها، ثم ساوى بعدها رأسه كلها بنفس القصر، كان يدق في رأس فتحى طويلاً، ثم يخطف بالمقص جزءاً من شعره، بطرث إلى رأس أخيه المقور وعمره على ألا أحلق عند هذا الرجل أذا مهم كانت الخسائر لم يكتب الرجل ذلك، ولكنَّه لم يقص لفتحى سوا الصه، تركها بلا تشذيب، كانت الموضة هي تقصير السوالف حتى أول الأدد. قالت أمي للعجوز:

«ظبطه يا عم. واعمل له قصَّة العريس. أصله طالع الثالث على المدوسة. وهاخذ شهادة تقدير بكرة»

يمسك الرجل بالمرأة المكسورة، ولا يرى فتحى شيئاً فيها. أعطاني الحلاق حنيهاً وأرسلني لأشتري له علبة سجاير، عدت فكان فتحى

يملس على ما تنفي من شعره، وينقص ما علق في ففاه من محلفات الحلاقة، أعطيت للرجل السجائر وبقية القلوس وحرب خارج الدكان.

«يلا يا حبيبي علشان تحلق؟ شايف أخوك؟ حلق وبقى غسل»

تقول أمي، وأنا أمل من خارج الدكان فتحي الذي يقف على بابته يتهزّش، شعره مدّرج وسوالمه طويلة، لا قصّة له كأنه خارج من السجن، يريد ذلك عزمي على ألاّ يمس مقص هذا الرجل رأسي، حرت أمي ورائي تشتم وتسب، ثم تتذكر أنها لم تعط للحلاق آخرته، تعود وتعطيه خمسة وسبعين قرشاً. أقف على الباب أنظرها، ملامح الرجل تعترض على الأجر، لا أسمع من حوارهما إلاّ آخر جملة، قالتها أمي قل أن تخرج من الدكان:

«الحمد ربنا. حلوا أوي كده يا عم. دا انتّ بوظلّت دماغ الواد».

تتفرّغ أمي لي، تمدد خطوتها وأنا أمامها، يسير فتحي خلفها مهر وما يتحسّس رأسه، طالتي يد أمي في سهو من حساب المسافة بيني وبينها، هزّت كتفي بقوة:

«يعني عاجبك شعرك دا؟ مش هأخذك معانا بكرة المدرسة».

لا أرد، أضح في الإفلات من فصتها، أرى فتحي يقف أمام «عاترينه» لمحل ملابس، لا يتفرّج على الملابس، ولكنه يتأمل شعره في الزجاج. أنشأ الدهاب لبست، يراي «مطراوي» صاحبي، يشير لي من بعيد، وأحمد الله على هروبي من مقص الحلاق الأخول.

تنفض يدها متي، تذهب في اتجاه فتحي، تتأمل رأسه:  
«القصة حلوة».

لم يرد فتحي.

«س قصرت شويّة»

لم يرد أيضاً

«أنا قلت للحلاق إن أبوك يياخذ خمسة وتلاتين في الشهر، س هو ياخذ خمسة وأربعين. المعاش عايزة اللي يداري نفسه يا حبيبي».

أمشي خلفهما، أراوغي في الطريق حتّى لا تمسكي أمي وفتحي لم سكلم حتى وصلنا إلى الست.

في مساء نفس اليوم كانت الحيرة الثانية لأمي، همز أين لنا ملابس نلبق بحدث مهم كهذا، دتّرت لفتحي قطعاً معلقاً من الدولاب، كان بدلة صيفيّة لكم لا يطابق نظلوها الجاكيت، اشترت له بيبون ومانديلا أحمر رشفته في الجيب العلوي، كانت هذه هي المرة الأولى التي نذهب فيها بملابس للمكوي، فرق فتحي شعره من الجيب ولشّع جزمة سوداء وركّب لها فرّش.

نصهي أمي بهذه المناسبة حتّى اليوم، تحتط شهادة التقدير وصورة وحيلة لفتحي، صورها واحد صاحبه من المتفوقين، لم يكن فتحي هو المقصود بالتصوير.



عندما بلغ فتحي أحي عامه الخامس عشر، بدأت أمي تحدثه باستحياء عن وحب العمل في إجازة الصيف، قدّم أوراقه في مدرسته الثانوية ولكن يبقى شهران على بدء الدراسة كان العمل في أي شيء يُضفي على الشخص مهابة، ويضيف إليه مكانة لم تكن موجودة من قبل اشتعل فتحي في ورشة نجارة، كان يعود إلى البيت منهكاً، يأكل ويام، كنت أراه رجلاً يمكن أن يتروح ويحب وهو في هذه السن، انتهت رغبة كبيرة في الذهاب بصحبته إلى الورشة، ذهت معه نصف بهار، قال لي إن اليوم بجيه، لكي لم أتناقض جيهًا؛ لأنني لم أكمل اليوم، في الورشة شتمني رجل نامي، كان أسطى كتيب الملامح، رأسه أصلع وكبرشه مهيب وصوته جهوري متوتر، يصع عود كريت بين أسنانه بشكل دائم ويشتم كل الصبيان لم أدر نفسي إلا وأنا أسب أمه كما سب أمي، يضربني بحشية كانت في يده، يجري ورائي وأهرب منه، أصل للبيت وحدي وادم، تعرف أمي الحكاية، تغير لي ملابسي وتدهن وجهي بمرهم من أسود قديمة خلف بروار صورة أبي بالزي العسكري، تصع يدها في عثها وتُخرج جنيهاً صحيحاً:

«حد، يومتك اللي كت هتقبضها، روح العب في الشارع. بلا شعل بلا زفت».

ويعود أبي منهكاً من قصر العيني، يسأل أمي عن وجهي القاب. وترد بغير اكترات:

«انكعبل وهو خارج. حصل خير».

ونتيجة لهذه الممارسات طرد صاحب الورشة أخي وعاد فتحي بحث عن عمل من جديد.

أبحث مع فتحي عن شغل قريب من البيت، وأجد ضالتي في ورشة نجارة، كان صاحبها رجلاً متخصصاً في ماصد الخبيبي الرحيمة، اشتغلت أنا وأخي عنده بأجر جيهين في اليوم لكل مآ، يقوم فتحي باستبدال المواسير وضبط استدارتها، وأقوم أنا بخلط البتزين بالكُنة وأسحه على سطح الحبيبي الخشن، يلوق الأسطى «المر وميكاً» حتى شد الكُنة، ثم يطوفها فتحي بشرط ألو ميويم، ليحس على المر ومايكاً الرقيقة ويضغطها مع خشب الحبيبي الهش.

عندما تنهي يوم العمل، كان كل مآ يساهم بنصف جيه، يشتري بالحبه كبشا محرمًا من الفاكهة، لا تصدق أمي عندما مدحله عليها بالفاكهة أن أولادها الأطفال يشترون لها موزًا ويطبخاً من المكهابي رأمت.

أكل أمي ما تيسر، ثم نام، علا صوت شيخه على جلبه الأكل.

فاتحتُ أمي ونحن نأكل في موضوع:

«الشغل أحسن من المدرسة».

لم ترد فقط زغوت وهي تخرج البلر من شقة بطبخ في يدها.. مأكملت قائلاً:

«دا أبويا ذات نفسه ميقبض ستين جنيه في الشهر».

نقصب جلادها من بدر طافش استقر في حجرها، ألقت بشقة الطيخ في الطبق بعنف وتركها، عادت دقيقة ثم عادت، رمت أمامي حذاء أبي المثقوب وقميصه الملتد بالعرق، وقع كُثم القميص في طبق الطيخ، قالت:

«هُمَّا دول اللي حتورنهم لو مكملتش تعليمك، أنت سامع» .

أخذت نهر دراعي حتى وقعت قطعة الطيخ من يدي، وامتنعت أبي.

## 6

أكملت أمي تنظيف التفاح، بعد إقصاء المعطوب نقي حوالي كيلو صبح للأكل، قُطعت نعصه وحلست بجوار أس، رفعت قطعة سليمة وفَرَّبتها من فمه

«تفاح أهو ياسي أنس... كل واتمزج».

يد مجعدة تمسك إليها، تضع فيها أمي قطعة تفاح معسولة، تنصرف اليد، يجلس صاحبها مرة أخرى فوق القفص الجريد على شاطئه الرشح.

يلغ الطعام فم أس، يرقس شده، يقطع ذراعيه الصعيرتين ويصعهما عند آخر حده، ترتعش أصابعه كمثل في تشهد النحيات. يقضم قطعة التفاح وهو ينظر لأمي، عيناها خضراوان، جميلتان، حادة في رأس لا يعرف كيف بأخذ بيد اليدن تُعلل أمي في رفته شخشيحة مربوطة بدويارة، شترتها له محصورة من السوق، هرتها هرات متالية لينتبه إليها، يتأملها أس ويحاول لمسها، رؤوس أصابعه تطولها بالكاد. ثوابه بعين راضية تقسمه ربا بجواره رصت قطته، قطه أس، هكذا تُسميها أمي، قطه مرقطة كمر صغير، لا تجلس مطمئنة إلا بجواره، تحمل إليه أحيانا قطعة من

طبق بلاستيك، أو كونا مكسوز، ذات مرة وصعت بجوار كرسية كرة تس  
متسحة اصطادتها له من المصرف، طلت بركتها أمامه وتجري حلقها  
تنصرف أمي عن أس لتكمل طهي اللحم، بعد السلق تدحر قطعتين  
محترمتين وتسقطهما في برطمان دهن ليحفظهما من التلب لأكثر من  
شهرين لا كهرة ولا نلاحة، لذلك تخرج أمي ما يضمن توازنات الحياة،  
فالفقر كالحصوة في الحذاء، في كل خطوة تدكره. بجوار البرطمان  
صفيحة سمن صغيرة مبيدة بالدقيق، تُغطس فيها بيض العراربح، فلا يان  
على السطح إلا الدقيق، هي وحدها تعرف العدد، ما دفتته وما تم فقهه  
نُعطى الصفيحة بصف بلاطة، ثم تحبك عطاء برطمان الدهن، قبل أن  
تأمل احتماء قطعتي اللحم في شتوره الدهن تسمع «أنس»، أو بالأدق  
تسمع الشحشيخة ومواء فطنه، لم تنه في أول الأمر، كرر أنس الماغة  
الحادة المتتعة وتعتفه فطنه بمواء متصل، لئت أمي بداءه. نسفرت  
عندما رأت ثعباناً صغيراً يتعلق في رقبتنه كالنقذ، النقطة تحاول هش  
الحل المتحرّك بمحالبها، نجّدت أمي لحظة للاستيعاب، لم تسجد  
بجدي طلبية الذي يجلس على قصص جريد بعد خمسة أمتار، هجمت  
على الثعبان ولطمه بكفها الثقيل، فطار على الأرض فاقد الوعي،  
ينتفض، تنقلص عضلاته، يقترب من الكرسي مرة أخرى، تسرع أمي في  
اتجاه الحجر الكبير، ترفعه بقوة لا تناسب عزم النساء، تلقفه دفعة واحدة  
فوق الحل المتوتر المنسحب على الأرض، تجلس على الحجر، تنقل  
عجبرتها وتدقها ثلاثاً تنظر فيكلاً، ثم تدحرج الحجر كتفحص قلباً

الحروب في أرض المعركة، يتحوّل الثعبان إلى رقم أربعة، كان طملاً  
حطه على الأرض بعضاً. ترفع أمي عينيها وهي تسمع أس، كان مدعوراً،  
لم يعتد اقتراب شيء من عنقه الصغير إلا أصابع ملاكه الكبير، يتسم  
وفي شق شفتيه الموارب بعض ذبابات تقف مصطفة في انتظار انسيال  
لعهده، هُتت عنه الذباب والتقت عيانه بعيني ملاكه فأدركته لطمأينة،  
عامت عيانه وكثر فيهما اليأس، أدركت أمي أنه سيحلد للنوم، سحبت  
عليه طرحة سوداء خفيفة لكي لا يضايقه انتهاك الذباب ولسع الناموس  
وطواف الهوام.

تمشي أمي متشمة وخميفة، كمراسة زاهية، فقد تعطلت الجاذبية  
الأرضية في هذه اللحظات.

كاذ الصقيع أن يُجمّد أمي وهي جالسة بجوار أنس، وأنس عافٍ في دنيا بعيدة، ربما كان يحلم بالحيل المتوتر الذي طوّق عنقه منذ دقائق . لمحتُ بعض الأكياس الخفيفة تطير إلى أعلى بشكل حلزوني دوار حلف البيت، فيما راحت أمي تملّس على رأس أنس ونقرأ المعودين . تركت أنس يكمل أحلامه وانصرفت تفكر في تصريف أمورهما فيما تبقى من اليوم .

كانت أمي تدبّر نفسها بجنيهي كل طلعة شمس، فلا تشتري اللحم، وإن كان ولا بد فمن الجمعية، ولا تنس الحديد ولا بلسه، في الأعياد تشتري لي طعاماً مستعملاً بجنيهي ونصف، موسته تجاورها الزمان برمان، لم يعد يظن لها إلا زبائن يعيهم يحفظ الباعة سحهم، زبائن يعاملون في التعرّيفة ويترددون كثيراً قبل اتخاذ قرار الشراء .

تفوز أمي أحياناً بملابس مجانية لا تدفع فيها مليماً، فبعد أن يفض سوق الحميس في آخر النهار، كان الباعة يحتفظون بالملابس المستعملة ويتخلصون من الملابس المستهلكة، كل سوق يرمون من أحمالهم قطعتي أو ثلاثاً من الصعب أن يرى فيها الزبون بقاء، نطلون مرّقط بقع

زيت، قميص بكمن واحد، فرد جوارب مشكّلة، تلحقها أمي في ثقبعة دون علم أحد، وحسبوا أبي، تصنع البطولون بصفحة الأحذية، تعص الكمن الآخر للقميص ويصيح صيغاً بصف كمن أو شتوتاً تحب جاكيت، توفّق بين فرد الجوارب، تخرج من المحاولات يزوجين محترمين، والبرد التي لم تجد شبيها، كانت تربطها من الفوهة بأسنك وتصح كبساً للنفود، أو تضع فيها قصاقيص فانصة من جارسا الحطّاط، تلحقها بخيوط دوارة فتصبح كرة قدم، ألصق بها مع فتحي في أيام الدراسة دون أن يراها أبي

هي إحدى المرّات كنت معها، شاهدتها بعيني وهي نللملم الموانص في بقجة وداث يوم، وحنّا في التقليد ليس أكثر، كنت أسير وحدي على حافة المصرف فرأيت ضرة ملاس مرمية، لا تحتاج إلى تجميع محتوياتها، مربوطة من ثلاثة أطراف، وطرف واحد واقع لسانه ومعكوك، اقتربت من اللقية، كانت كلها ملابس في حالة جيدة، أفضل من تلك التي تلحقها أمي من عُقب السوق، حملتها على كتفي ودهيب مزهوا بها إلى البيت، الشيلة كبيرة، رمي بصفها فقط على ظهري وبقي الثقل تعلّق في الفراع، خيالي يرسم الصور على الأرض المشتقة من الحرّ والصهد، سترعد أمي وتعطي حاجة حلوة، أقول لنفسي، فقد قربت عليها لمّ الملابس من عُقب السوق، واختصرت عليها الإحراج عندما تتابعها العيون المتطفلة، جئت لها بملاس أفضل حالاً من تلك التي يستغني عنها البائعون ليروحوا حفاً أول ما دخلت كان أبي يستريح من إجهاد المواصلات اليومي، يجلس على الكسة ويلهث، بجواره أمي تأوله

ششق ماء، ألقيت بالبقجة أمامهما، خلع أبي ثعليه، أسند يده على حرف لكتبة، نكس رأسه ونأقل ما رميته أمامه:  
«ليه دي؟»

فأجبت وأنا أنتظر مكافأة:

«هلوم لقيتها وأنا جاي».

هت حرح أبي من المشهد ونصدّرت أمي، حدشني من دراعي وهي تنضم الكلمات دون فواصل، لم تعطي فرصة للإجابة:  
«هلوم ليه يا واد؟»

«مانا يا انا لما كنت معاكمي...».

وقبل أن أسترسل وأفضح الدنيا أمام أبي قاطعتني بحدة:

«اسمع يا واد طرطاً وداك كويس لسي هقوله، القرف داتروح برّجعه مطرح ما جتته. وجشك عيك توطي على حاجة مرمية في الأرض وتأخذها. انت سامع ولا؟».

في ذهول وبلادة رفعت البقجة مرة أخرى، دخل أبي، لى المشهد من جديد موجهها كلامه لأمي:

«متخليش حد من العيال يشيل حاجة ميعرفهاش يا عيشه. يقولوا بسراويل بترمي كنابل بالطيارات على شكل لُبّ وعرايس وأفلام وحاجات ثانية كثير».

قال أبي وهو يرثي قميصاً من عُقب السوق، حرته أمي وخاطته  
بغمر ملققة من لون آخر. تورعت نظرات أمي بين متابعة تعبيرات وجهي  
والرد على أبي:

«لا يشيل ليّه ويتاع إيّه. هوّا إحنا بتوع الكلام دا؟».

كان رد فعلها غريباً، وحتى هذه اللحظة لا أجرؤ على معانتها فيما  
قالته أمام أبي. كانت واثقة من نفسها لدرجة أريكتني.

## 8

أبدأ التعرّف على نفسي وأداس ستين، لا يعكسي الوصول لشيء  
مفيد عن هذه المرحلة دون مساعدة الحكايات، كانت أمي تحملني  
وهي تنفل الطوب مع أبي وترصّه على شطّ مصرف، تمشكّ قكّة جلديها  
الأسمر وأراقده على ذراعها، ورصّة طوب فوق رأسها تتمايل، يمشي  
أبي بجوار حمار مُحفّل بقش هائش وشكائر ومال منديّة.

رصّات الطوب على وش الأرض أصبحت جذرائنا، والجدران بعد  
إتمامها شيدت بناية، والباية ينقصها سقف يحمينا من الشمس والمطر،  
دفع أبي ثمانين حينها ثمن قطعة أرض، أقنع نفسه بأنه اشتراها ولكنها  
كانت وصع يد، دفع الثمن فقط ليتجاوز حارس الأرض عن البناء عليها،  
شخص اسمه شافعي لا أعرف عنه الكثير.

أمدّ أبي قطعة الأرض بطوب مستعمل من بيوت مهارة سلماً وسقفة  
معلقو نخل، شقّ عود كافور بالمكينة عشرين لوحاً، رصّ فوقه حصر  
عاب مدكّكة بأحبال قش ثم شتّع التسقيفة بالطين، طرطش الحيطان من  
الخارج بمونة ملوّنة بأكسيد أزرق، ومن الداخل دهنها بالجير.

بعد أن انتصبت البنائة وأصبحت بيتاً موسيئاً. جاء دور الفرش، تكلمت به أُمِّي بالكامل، جميعه حُرَّح بيت من سوق الحميس استعمله قبلنا قوم آخرون، وعندما وصل إلينا أصبح أقرب إلى حردة، لا تصلح له أسماؤه التي كانت مخلوطة عليه من قبل.

بدأت وحي نست من الربط بين الأشياء وليس من الأشياء ذاتها، ملاحظ من حولي تسبح في دخان لا يستقر على لون، كانت المذايه التي عرفتُ منها ناس فقراء مرتبطون بالمدرسة، قدَّمْتُ لِي أُمِّي أوراقِي فِي الصف الأول الابتدائي أحذيتي معها قبل بدء الدراسة، ألبستي «شورت» وقميصاً سبيك له أزرار كثيرة ولا معة، فرحتُ بهذا القميص بالبدات لأن أرواره كانت مُدهَّنة وكبيرة، رأني عمل صاحبي وأنا أمشي مزهواً في حوش المدرسة:

«دي بلوذة يا واد. أنتَ عندك إخوات بنات».

«لأه».

«تبقى بناعة أمك».

هشَّتُ الولد، علَّمتُ أطافري في رفته وحمرت أحاديدي ربيعة حمراء

وأنا في الصف الأوَّل الابتدائي، لم أكن قد تحلَّصتُ بعد من سطوة الأحلام، كنتُ تنماهى مع الواقع بشكل غريب، لغة أحلامي كانت مختلفة عن الواقع الذي أرى فيه أُمِّي وأُمِّي شكل أكيد، اعتبرتُ الأحلام

واقفاً آخر عتياً عن المساءلة، أحسُّ أن يغيب عني ذات لينة ذلك العالم الساحر، لا أنام مغمض العينين، أفتحهما على الآخر كمن يتنظر بدء عرض سينمائي شيق، تأتيني مخلوقات هلامية في صورة حلوة دائمة، أعلمهم ناس أكرمني قليلاً يلمس أشيائي المحزَّم عليّ التفكير فيها، إحساس متع أنمي ألا يعيب أبداً، أن يستمر بشكل دائم، حتَّى ولو لم أستقظ بعد ذلك أبداً.

كان ذلك في بداية المرحلة الابتدائية، أنا في نهايتها، فقد تغيَّرت الرؤية أصبحت أحلم بمعاناة شيء لا أعرفه، أتوه في دوائر لا أخرج لها، يسكب هني سائل لطيف، قوي ومتعش، أفيق بعده كأنه جئتُ خارج من أطافري، يُختصر السائل بعد صحتاني إلى بقعة صفراء لا تجلب إلا حصّة طارئة، أسأل نفسي، هل أبول على نفسي؟ أخرجتني أُمِّي من هذه الدائرة الجهمية بحيلة

كنت تدور ملاسي الداخلية في الطست، لمحت البقعة فتركتها، وصرحتُ إليّ، ثم قالت وهي تداري فمها بطرف طرحتها وتصحك «يخيتيك، أنت كبرت يا واد».

أُتعد عنها، أبحث عن متعلقات على الحائط وأناملها، كُفِّي عرقانة، لا أجد كلمات أردُّ بها، تصيف أُمِّي:

«خلي بالك من نفسك يا حبيبي، ومتلعشب كثير مع البنات».

لم أرد أبص، لم أهتم المقصود من كلامها، كأنها لم تصف شيئاً، تركت العسيل ونشفت يديها في جذابها الكستور، وصغت يدها على كتفي، وعبرت بيدها الأخرى عن وجهة نظرها:  
«أنت من دلوقتي بقيت راجل».

ثم ملست على شعري، انمايت فقاعات صغيرة من الصابون على حدي كنت أحاول ترجمة ما تقوله لي وتحويله من كلمات مهمة إلى إحساس يمكنني استيعابه.

## 9

جاء جدي طلبه لزيارتنا في يوم بعيد، قالت أمي أنه لم يكن يحمل سوى دروار كبير تحت إبطه معطى بورق جرائد، طس محتفظاً به مغلقاً لأكثر من سنة، فتحه وعلقه عندما دهر أبي بيته الملبث، جدي يصافح الرئيس جمال عبد الناصر، ينحني أمامه والرئيس يصحك، يمسك بصك الإصلاح الزراعي، كانت هذه الصورة هي التي نشرتها الصحف بعد ذلك في عيد الفلاح.

متذرايت جدي وهو بهذه الملامح، عجوز مكرم، لا أدري لماذا كان أبي يكرهه، لا يتذكر أي فرصة لإحراجه، استوعب جدي طبيعة العلاقة بينهما، لم يعد يعامله بشكل مباشر، دائماً بينهما وسيط ماء، واخترت أنا لعب ذلك الدور، لا يعطيه أبي شيئاً، يسلمه لي وأن أوصله لحدي لذلك كنت الأقرب إليه، مجلس معاً نأكل ونشرب ونسام، تحممني أمي من سريره في أغلب الليالي. أحب الجلوس معه بسبب حياله الجامح، كان يستمتع بحويل شيء ما لشيء آخر تماماً، فالطائفة نسي يلبسها كانت ذيلاً لجلباب، رسمها للخطاط على جلدة كراسة. وكان يُركب في ناسه جيت لشبل الغفوس، هو الذي حاطه بإبرة تمجيد ودوبار، ومن ملك ملقى في الرماله وعمودين كرون صمغ سحاح كهرة، كان



بسرقة النيران من عمود بور أمام دكان بقالة الأطرش ويعمل عليه شاباً  
أنا أفضل احتراعاته بالنسبة لي، فقد كانت مريحة صعباً من أعواد  
حرير، يبطئ في السقف ويطنها شبكة صيد قديمة، ثم وضع عليها  
ملابس مستهلكة لا تستخدمها، تمرحت عليها كثيراً، كنت أنسى أبي  
ورائحة المصرف وأنا أهرق في بطنها، بل كنت أنسى صانع المريحة،  
جدي طلبة نفسه.

بعد أن اكتمل البيت دهه أني بالخير ثم بي له مصطبة، كان جدي  
طلبة يفضل الجلوس عليها، يرد السلامات على كل من هب وديب.  
يتفرص فوقها وهو يهين نفسه لاختراع شيء جديد. أراه يجلس وأمامه  
ساعة قديمة، يغمس مس مفك ممعطاً ويلتقط به برسا نحاسياً صغيراً  
من تروس كثيره مفككة، ينثر حوله بقايا الزم، وكأن الساعة فرقت  
فيها قسلة، يحاول ضبط الساعة ويفشل، كلما ركب الترم كان يحك  
في عمود العقرب، يعيد المحاولة مرات ولا يحالفه التوفيق، لا تفتح  
روح الحركة في الأشلاء، يللمها، يصعها في كيس بلاستيك شفاف،  
يرميها جده ثم يحترق حطه في موصلة لا تعمل، يخلع مؤشرها، يدير  
فرصه في كل الاتجاهات، يظل المؤشر صامداً لا يتحرك موقعه.. يفشل  
في إصلاحها.. يستخلص بعد محاولات عديدة أنها موصلة فاسدة من  
الأول، وأن العيب ليس فيه.

يقوم بكسل من على المصطبة، يتجه نحو الكسة الوحيدة في البيت،  
يرفع مرتبة الثقيلة، يفتح باباً به صدوق سخارة، يدهس الموصلة بين

د الكيب الأجهزة الكثيرة التي يُجرب فيها دكانه، وكانت تنتهي أحياناً  
بندت عكس ذلك

أعود أحر النهار بعد المدرسة، أسمع جدي طلبة يقولها دائماً.  
«ما واد انت يا وله».

يكررها، يسعل، يتأملني بنظرة ذائلة  
«نعم يا جدي».

يترفع أصابعه في ترو ويبحث حول مرتبة المقعة عن شيء يسليه،  
أو يطلب سيجارة، دائماً أحبي له سيجارة أو اثنتين في جيب بيجامتي  
أو تحت طبق الطعام، يدهس السيجارة برفق، وربما برقة في علبة من  
صباح مقوش، عليها رسمه واضحة وراهية، سسكت قمح يطوقان وجهه  
نحاساً يبدو لشخص أحبي، يقول جدي طلبة أنه ورثها من سنوات  
بعيدة ولا يعرف على وجه الدقة من شخص أو لأي قصة تاريخية تنتمي؟  
يحتمض بها منذ أن كان يمتلك عشرة قناديس في قريته صمصوا على  
صيف فدان، يلدن له ليل نهار وكأنه نصف عربي.

جدي لا ينام في اليوم سوى ساعتين أو ثلاثاً، بشعل بقية اليوم في  
متعة حركة البيت كله في صمت معجب، يقول أبي إن جدي «أصح»  
لا أسمع حيناً، لذلك تدور أشد الأحاديث خصوصية على مقربة منه،  
أحياناً ألمح في حديثه ما يشأنه يسمع كل شيء، وأحياناً يتجاهل  
الجمع ويكبل السباب لنا وللعيشة والزم.

لم يكن يعمل حساباً لجدي طلبة بالمعنى الحرفي للكلمة، لا يُعتبر موجوداً إلا عندما يحين وقت الطعام، فسمحه بعضاً مما يطبخ، يشحط فيه أبي بقسوة لمنعه من التدخين:

«إنت مش حترجع إلا لما تولّع فينا».

«محدث بياخذ أكثر من نصيبه».

يرد جدي بنفس مكسورة، لم يكن أبي يعطيه اهتماماً كافياً، بل لم يكن يعطيه اهتماماً أصلاً. كنت أعقد أنه حدي لأبي، عرفت أنه عَقَه بعد سوابٍ طويلة. بقي ليحككي عن فترات سقطت سهواً أو قصداً من ذاكرة العائلة، أحداث ربما لم يرها أحد غيره، أشهر العائلة وطبوعها، هو وحده من يصنّفهم ويجعلون إنجازاتهم.

أراه الآن يسحب نفساً، يُلّ لل لعابه السيجارة، يضحك، تبان لثته الوردية الغامقة، يقول:

«اقعد».

يستيقظ حدي ويهرش في رأسه، يبطُ شفتيه ويحاول تثبيت صور الأشياء من حوله، يتأمل قليلاً ثم ينظر في اتجاه المطبخ. بعد أن تخطى حدي ظلمة المنبس، أصبح يتحدث عن أشياء تظهر أحياناً على شكل حكم، وأحياناً تبدو متناقضة وبعيدة عن بعضها بُعد السماء عن الأرض.

أجلس بحواره فلا ينطو بكلمة، يتفحصني بعينين ضيقتين، لا يستطيع دفع دحان السيجارة خارج رثتي، تغلّص ملائحته، يتلع الدحان، يقول:

«أنا شامم ريحة رز وشورية. قول لي بقى هوّ اللي أنا شبعيته ده مسح؟».

هَرُ رأسي بالإيجاب، ننسب ملامحه كطفل نذكر مكان لعنته، يملّس على صلعتة ويسألني

«أملك عملت حسابي في المناب؟».

«طباً يا جدي».

أحيه، تأمل دوائر الدحان الحلزونية وهي تذهب في راحة قصيرة من فمه إلى السقف، تلدبين عروق الخشب والبوص، تحوم الدوائر البيضاء حول صلعتة القبطية الناعمة. جدي طلبة يفقد كل وسائل القصم والطحن، فمه حالٍ من الشراسة، يتحرك فكّه بكلام ودون كلام، يستحلب شيئاً وهمياً لا نراه جميعاً، تعمل أمني حسابها وتصنع له البدائل، فته طرئة، مكرونة مرقعة، أرزاً نملوحيه، تنزلق هذه الأنواع من الأطعمة سريعاً فور أن تلمس الفوهة، تشق طريقها إلى الحران دون احتياح لوسائط يسحب بعضاً آخر، يخرج الدخان متدفقاً من فتحتي أفع الكيرتين، يردد الهواء ويقول:

«على فكرة. ريحة اللحم حلو أوي».

لا أرد عليه، أتأمل ملامحه وهي تجاهد من أجل التعبير، يلتفت والسيجارة ترتعش بين أصابعه، كمن يقتني أثر مشاهد متاعه لسينما حيالية لا أحد غيره يراها.

«امسك يا حبيبي بسرعة الطبق سخن».

تمد أمي يدها، تقدم طبق الأرز لجدي طلبة مدعماً بكوب شوربة، ينز المرق على قعر الطبق، تجذبي من ملاسي، بالكاد أرد يدها، تسحبي صرّة أخرى، أطلب منها طبقاً مثله، بعد تردد مرتين نوافق أخيراً، تمنحني طبقاً أكبر منه، يلمحه حدي ويتشم، أقذف كتل الأرز لمعي، يلحس جدي يده وما تبقى في القعر، الطعمان يفرعان، أقرخ على جدي طلب «كمالة»، يوافق، يجذبي من دراعي، يهتز بالكامل، يهزل كالأطفال، يقول:

«بس قول لأهلك إنك أنت اللي عاوز رز وشورية مش أنا».

بعد أن نسف محتويات الأطباق، أمده يدي بسيجارة، يشعلها وهو يطرع عظامه ويتمطع، نشأب ويساوي بيده المرتعشة شعيراته المتقبية فوق صلته، المجددة، ثم يعود إلى تأملاته، تحتلظ بقلته ببجور ذكرياته، لم يحدث اليوم أشخاصاً ليس لهم وجود، ولم يجادلهم في أمور لا أدري عنها شيئاً كما كان يفعل في أغلب الليالي.

## 10

عدم حملتي قديمي وأصبح بإمكانني أن أقف وحدي في طابور حيز: بدأت ذاكرتي تحدد لأبي مكانه المناسب في دهاليزها، كنت أرى نفسي بمثابة نفر من الأنفار في وسيئته، يأمرني، وعلي السمع والطاعة، سدة من شراء الدخان، مروراً بتصليح ما يتلف من حلل وكراس وشائيب مقطوعة وتسليك المجاري التي تطفح أكثر مما تسير لحالها، وانتهاءً بسلف «حجة بخمسة» من عمي الميسور الذي يعمل مساعد أمن بمطار القاهرة، يأكل أولاده العربي كل يوم، ويمسحون وحوهم بماديل معطرة، يشتررون العسيلة كاش وأكياساً وليس مثلنا فرطاً أو شكاً

عندما أفلح أبي عن التدخين، كان يرسلني لشراء «المصعة»، وبعد دحكبي جيداً يبلعه جوزه الطيب ومسحوق الكربونات يستحلها، ثم يقذفها كوزاً صغيراً، تطير بقوة الرميز لازقة في فقا من وصعته، الأقدار أمام القديعة، تمسك في الأرض كالصلصال، تعدد الكور الملتصقة بالبلاط يحل مكان أعقاب السجائر، تحمل جميعها رائحة تبغ فؤاحة، كريهة. لا أحد يبع مضغته سوى الأطرش، والأطرش ليس لقساً ولكنها عمة، كان بقلاً يتمتع بأخنين كالمقاطف، يؤكد دائماً أنه يسمع دبة النملة، لكنه في الحقيقة لا يستطيع سماع دبة ديتانصور، يؤكد دائماً على وجود الشيء

الوحيد الذي يفقده. وكانت لأبي صفحة دائمة في كراسة مقعة يحتفظ بها. حلقة مريئة يحطها ويصل للصفحة التي يريد بها بالتمام، يُدوّن فيها أسماء رائيته أصحاب الحبوب والبطون الحاوية. أناديه، يعلو صوتي وتكشر ملامحي والرجل شار د في عالمه الصامت. أضع له الشللى على بنكه الخشبي المزيت، وأقول:

«بشلى مضغ».

«ملح».

«يا عم بقول لك مضغ».

«ملح».

«يا حاج بقول لك مضغ».

«ملح»

أوشك أن أسفه، أترجع عندما أنذكر زحاجة الزيت التي رماني بها ذات مرّة لأن إشاراتي وحركة شفتي لم ترق لحبات تأملتي بنظرات ثابته دون كلام. كصيف قادم من قبا كنوس، تاسع رد فعلي، صدعي يتر الزيت في عيني، انفتحت الزجاجية فوق رأسي من شدة القذقة.

لا أحكي لأبي ما حدث، أعطيه الدخان وأتابعه وهو يعجن حلطته في طبق ألوميوم. لا أسأله عن شيء، أنفرح عليه من بعيد، فهو من يُنمق عليّ، لذلك لا يجوز لي أن أصيب لما يقول، أو أحذف، ولذلك كان يُصدّع رأسي ليل نهار:

«أنا اللي وبيتك.. اللي ياما صرفت عليك.. علمتك وأكلتك  
.. شُرّتك.. وعملت منك بني آدم».

كثيراً كنت أسأل نفسي:

«دا دام هو من عمل متي بني آدم، فما عمل الله إذن؟».

حعلتي هذه الإحساسات أشعر مدب حفي، ورغم ذلك أشفق عليه أحبب، أسعفه شعشق الماء من التلاحة عندما يكبح بالليل، أناوله محدّة بسد عليه كوعه، وهو يتمرج على المسلسل العربي المسائي أو فوارير مصان، يتكئ على جنبه بعد الغداء ويقفح «مسموعاً» عطيقاً، فشل بعد جهد في تحويله إلى «مشمومتاً» فقط، فيقصحه المسموع أكثر من لمشموم الذي يتفرق ريحه بين القبائل.

بعد انتهاء المسلسل، يسحّ الماء في كنكة صغيرة، يجمع قشور الصبيون المتبقية من الاستخدام، يعجنها في علة بلاستيكية حائلة كانت عبوه مرئى أو طحينية، تصفع العجينة بعد عملية تدوير سريعة معجون حلقة بكمية لعدة أسابيع

فرص عليّ ذات ليلة عراء أن أكل طبخة حبيزة، اشترتها أمي من عم شافعي. من يكون عم شافعي؟ تلك قصة أخرى، ربما لاحقاً سأذكرها كاملة. المهم.. أكلت الخيرة غصبا عني، ونتيجة لذلك استفرغت لحلطة الحصرء قل أن تلمس قعر معدني، انظاهر بطعته لأخرج من المرقق المفروض عليّ بأقل خسائر، تماماً كما كان أخي فتحى يفعل

عندما يتظاهر بحل الواجب، ورغم تفوقه لم يعجب أبي إلا الظاهر، يريد أن يراى نذاكر ليلاً وبهاراً، فكان فتحي يحيى الكونشية تحت الطليقة، يسحب أبي أنفاساً طويلة وتبدأ الموسيقى التصويرية، يعلو الشخير، يعاقب النجوم عند السبح الطباقي، يرتد إليها على هيئة صدى صوت، يسحب فتحي الكونشية المعققة مأسك في حلق الطلبة، تلعب يراحتا حتى تتوقف الموسيقى التصويرية عن التدفق، تشعر بالحطوط، يبرد فتحي كتاباً مقلوباً فوق ورق اللعب، يصحو أبي من نومه وقبل أن يفتح عينه يقطع كل ما قلماً على قفاه، ندس رأساً بين أكتافنا خوفاً من عطر يده التي كانت كخف جميل.

هذا هو أبي، عامل «السويتش» في قصر العيني، كان يقطع يومياً ثمانين كيلومتراً دهاناً وإياتاً وهو محشور على سلم أنوبيس 52 بشرطتين، يصل يومياً بشنطة حز ساحر وثلاث بيضاب مسلوقة تبقث من وجبات مرضى القصر البائسين.

## 11

بعد أن أصبح أبي صاحب بيت ملك، وضع في عمق البيت رفاً (تجالياً وأسماء مكتبة، لا يخلو من مصاحف بأحجام مختلفة متهتكة الكموب صفراء الحواف، فاقلة لبعض الصفحات ومردومة بالغبار، نطل المكتبة على مجرى الرشاح مباشرة، مفتوحة ويهت عليها من كل اتجاه هواء ثقيل صعب الاستنشاق. علّق على جميع المحيطان يراويز صغيره تصم أدلة إيمانه، آية الكرسي، المعوذتين، أسماء الله الحسنى، انتشرت على المحيطان أحاديث نبوية شريفة عن فضل الرضا بالقدر، وأحاديث قدسية عن طرد من لا يصبر على البلاء من تحت السماء، وبعض أقوال مأثورة لعلماء يصمون الأرضين السح والسموات السح، بحسبون المسافة التي يقطعها المذهب حتى يصل من الثقب الكونية لعبدية، فيمكن إدراكه بالأنصار المجردة. كانت أوراق منسوخة عن طريق مكنة تصوير رديئة، تجهد العين في فك طلاسمها بلصقها أبي «نلاستر» شفاف لتصبح في مستوى الرؤية، يبوّشها المطر ونخلها لرياح، يستبدل بها أوراقاً غيرها أشد بهتاناً من الأولى.

لللبال طوييلة طُلَّ ينقل صمحات من كتاب، قيل له أن من يسخره ثلاث مرّات سيُسي له قصر في الحنّة، وكُتْ أشفق عليه من هذه المهنة الشاقة، عيه تدنّع وعنه يقطط، كان يستخدم أقلّاً من سبعة الصّبح، تريد من ضعف نظره وتُحيله في نهاية الليلة إلى ما يشبه العمى عندما أنهى صفقته الباحجة مع الله، ركن ما أنتجه فوق نفس الرف الذي يحمل كتبه، تكوّم فوقها طبقات من الغار واتحد بها العنكوت مزاراً دائماً

رغم الإيمان الذي كان يخيّم على بيتنا فالفرحة لم تطوق بابنا كثيراً، برث أبي، لتقوى اللطيفة ويحفظ كتاب الأربعين النورية، يحصر حُطبت الجمعة من أولها، يقف على سجادة الصلاة نفس مكسورة وكثير من ترحين، يصوم ويسلي صباهم ينهي أنا وفتحي، أو النظر لأسر بعض مكتوم، ثم يتعحر فيما نشائم قاسية وطلة كتيبة، يسب للعالم ثم يستعمر، وأحياناً يستعمر دون أن يسب.

أنا أمي محسنت أمرها باتباع أركان الإسلام الثلاثة (فالحج بعيد المال والزكاة من اختصاص أبي).

كانت تريد من مساحة تحكّمها في الأحداث، وتهشّس دائماً المساحة المخصصة لأبي، كت أشفق عليه أحياناً من هذا الدور الصغير الذي أصبح يلعبه في الحكايات بشكل دائم.

كان شأن أبي كبيراً في مخيلة أمي فقط وقت حصوره، أما في غيابه فتحدث عنه كأنه طمس عبي لا يمكنه السيطرة على شيء، ترض مواقف

شاهي باكتشافها، وعندما يفعل ما يستقرها تنلّب حظها بصوت دنوشوشة: «البيض الخسران يتدحرج على بعضه» وكان غياب أبي شبه الكمال عن البيت يشجع استفحال هذه الصورة، عاش يبحث عن الرزق وأكل العيش أكثر مما عاش معنا حسناً ومعنوياً، يشيل البورديات بدلاً من رملاته من أجل حصة جبهات للمواتجة، وكان يذهب يومين بعد الظهر في الأسبوع إلى عيادة خارجيّة لطبيب من قصر العيني، يُعَلِّم المرضى ويتقاضى بقشيش ولا يعود إلّا قرب منتصف الليل.

أحاول ترميم الصور الفقيرة التي كانت تصني متقطعة عن ذاكرة أبي، أحاول تصوير الجو بما يحلق متطيّة للأحداث، كتّ أريد تكوين صورة لما قبل تشكّل وعبي، منطقة مُعربة إلى حد بعيد، تحلّت فيها عسي وأنا جس أنقلب في قراري المكين، بيتي الناعم، حوضي الملح، نساء حتّى الآن أحد في قرفصتي فوق السرير ووضع يدي بين ركبتي رميات من هذه المرحلة الغامضة.

أو صحت لي أمي عبر حكاياتها الأولى أن الصورة التي رسمتها لأبي  
 ، ان صغير كانت أنقى مما هي عليه في الواقع، تشكّل وعيي على صورة  
 أبي لتي رسمتها أمي وأصبح من الصعب عليّ أن أعيرها، حتى لو شئت  
 لي عكسها

بعد أن أصبح بإمكانني اللعب مع فتحي في الشارع، تأكدتُ أن أمي  
 كانت مُحجّة بعض الشيء، في تصوراتها عن أبي، فقد معنا عن الاندماج  
 مع العالم والتماهي فيه، أو على الأقل منعنا عن محاولة فهمه، لم نر  
 ما حولنا كما هو في الحقيقة، ولكنا كُنا نراه بالكهة التي يريدنا هو،  
 فأصحت الدنيا دون وجوده لها رائحة مختلفة وطعم أفضل كان صوته  
 يطل بعبارات رنانة ولها معنى واحد تقريباً، أنا جميعاً غير مؤهين  
 للتعامل مع الأخطار التي يمتلئ بها العالم، ولو حدث وتعاملنا فيكون  
 ذلك من خلاله هو، لا من قدرات مخلوقة فينا نحن. كان يشخط فينا  
 عظاظة وكأنه يادم على إنجاب، أو يمتنّى عودة الرمس ليخلف حتى يأتي  
 بدرّة أفضل منّا، وكان نتيجة ذلك أن تقاسمنا العالم أنا وأمي، ملكنا  
 تصورات بديلة للواقع وألفنا ميناريوهات تتناسب مع خيالنا.

احتصر أبي أميانه كلها للفوز بموطئ قدم في الجنة، وكان يرى أن هناك مصعداً سحرياً يربطه بالسما، يوصى بالقدر أيّا كان هو، وأماله كلها مرتبطة بأشياء معنوية لا يمكن لمسها. أما الحياة التي أعرفها فهي دائمة مصحونة باللعنات، ومرتطة في ذهاب الأبالسة والأشجار العاسقين.

يسعمني الخيال دائماً تشديد المناظر المقررة والروائع الكريهة بعالم أحر أكثر رقة وأوفر بهجة، حاولت أن أصنع عالمي الأفضل بيني وبين نفسي، في دماغي أرسم قصوراً افتراضية ممكنة.

عندما عجز أبي عن تفسير حالنا، طُمر في نفسي سحر الطفولة، أصبحت طفلاً تكسو ملامحي تجاعيد الرجال، أو رجلاً في حسد طفل، عوضاً طوال الوقت وأفكر كما يفكر الكبار، أمشي كما يمشون، تتددت أحلامي في اللعب بالكرة أو تأجير دواحة تضارب ما أنعماء مع ما أعيشه بالفعل، فصنع ذلك الحليط مخلوقات هجينة أفرزها خيالي، دائماً كتب أرى شخصاً مشلحاً جلده ومقرصاً، يعطى ظهره للشارع والناس ويعطى وجهه لمجرى الرشاح الأزلي، يصعط على جهازه الهضمي ليفرع محتوياته ويغث زرقته. كانت البيوت المتلاصقة مقلداً لكل ما يثير النفس ويصيب مراكز البهجة بالاشمئزاز، يتحلّص الناس من فصلاتهم في الحساء، وتأتيها في العلن عبر المجرى الدائم من حلقنا، نقاب الأطعمة وقمامة تتكؤم تلالاً تحجب عنا رؤية الشمس، والعمروفين من عابري السيل كذلك، يقرقوننا ليل نهار بروائح صعبة الاستشاق، حتى العصافير كانت تعملها فوق و كأن مختار عز زفقتها وبصط رؤوسنا تحتها تماماً

بصع لحليط رائحة جهنمية لا تطاق، جيف الحيوانات تصلنا عن طريق منح المصروف الذي لا يتوقف عن الحريد، أظفر للماء البطي القانص، أشعر بأنني متدثر بلحاف من رصاص تُكوّنه عناصر تجمعت على مر القرون، رائحتها تحترق أنفي، حشرات محروقة ولعت فاسد وروث حمراء، ملابس هالكة وطبخ حامض وبقايا حمر مرقش بعض أخضر هش.

كل هذه الروائح تعششها، في أنفي تسكن، الماء بالصابون الذي يرشه النساء بكثافة صباح أيام الجمع، لتجبل الأحضر المروي من ماء المصروف، وأثقة عفن يصيب الزرع حين تغرقه المياه، زيل الحمام وروث الماعز والبلاستيك المحروق، وتسكن هنا روائح قشر ليمون وأحشاء سمك ويزادة حديد، أكداش من كل ما لا يحتاجه البشر، طبقات من زكام وتراب تنعجر من قلبها حرائق صغيرة، براكين لا تنصهر الأشياء ولكنها تلسعها على مهل، شعوم صغيرة دائمة الاشتعال، تلال القمامة سج أدخنة من كل جنباتها، يحرسها غاب منتظم الطول لا يحترق، كل ذلك لم يكن يكفي بالتعشيش في أنفي فقط، كنت أستشعره يتوغل في كل كيان، يعيد رسم قناعاتي ويحدد تكويني من جديد.

حدث شيء عرفت من خلاله أن الأيام تصهرني وأكبر، أصبحت أقول «الله» عندما أرى شيئاً يعجسي عندما أندش... لم أشعر أبداً بأن الكلمة تعني بأنني أتعبد... نشأت علاقة جليدة بيني وبين كيان كبير، علاقة ليست مبنية على كلمات أبي، ولا قناعات أمي.



## 13

خرجت مع أبي في الصباح وعدت آخر النهار.

هذه المرأة كان يحمل كرتونة على كتفه:

«هات الكيس البلاستيك اللي مرمي على الأرض ده».

يقول أبي، أنظر لاتجاه يده، أرى كيسًا مكدًا لم يسلم المطر منه  
كامله، أمسحبه وأعطيه له فيرميه على الكرتونة التي يحملها بحرص أم  
حتى على وليدها من نزلة برد.

من آخر الشارع، تبدو البيوت كدودة كبيرة نائمة، كلما اقتربنا  
صغمت الدودة ووضحت تمرجاتها، الشارع ساكن ويستعد لاستقبال  
الظلام، رغم المغرب الذي لم يؤذن بعد.

مَلَّ اليوم من الضجيج فقرر أن يستريح، تجرد الناس من أفعنتهم  
لني نسوها طوال يوم شاق ومكرر، فقرر أن يعودوا إلى أنفسهم في  
عنهم الصامت

يبحث أبي عن الخطوة وتوه قدمه في الطين، بسحبهما من الانزعاج  
مصعوبة، القيادة السوداء ثقيلة، يزيد الطين من اتشادها للأرض، يقف

قليلاً، يشاهد بعين حiale شكل التليفزيون المضيء ومن فوقه تقام  
صور الممثلين والممثلات، الأحياء منهم والأموات، لن يذهب بعد  
ذلك للفرحة على التليفزيون عند عمي الميسور الذي يصيح أولاده كل  
صبح وحوهم بماديل منديّه بالعطور، ولن أقف أمام مك الأطرش  
لأرى جزءاً من قُصّة شعر نيللي بعد مدفع الإفطار.

أنشاء السير يبالع أبي في التوارن، ما يشعله بالأدق ليس ووقعه،  
فلن يكتمه ذلك سوى المشي تحت المطر مئة أخرى لتتكمل القطرات  
بعسل رأسه وملابسه، ولكن المشكلة تكمن في خوفه من وقوع كرونة  
التليفزيون.

تحوّلت قطرات المطر الخفيفة إلى زخات زلجت الأرض، مجرد  
التوازن أصبح يحتاج لمجهود، أمشي بجوار أبي، كان مرهواً بكرتونه  
الكبيرة التي يحملها بحرص ويحشى عليها من قطرات ثيل محتواها  
كل صبح خطوات يوارن بين أطراف الكيس البلاستيك فوق الكرتونة  
ويسرح، يتخيل الصندوق المصني بكائناته المسخوطة وهم يعنون  
على الشح أو الانسجام، وكذلك الوعاظ الأنقياء المتحمسون بالعلم

يقف أبي كل خطوتين، يُعدّل وضع الكرتونة الثقيلة:

«لسه كثير يا بابا».

«هانت.. كلنا فركة كعب».

أطرق للبيوت لا ينتهي، لا يظهر بيت على مدد الشوف، فقط انحداء  
عاشه على شكل بدفحان دائمة، وطوال الطريق تمشي معنا مياه حضراء  
يطفو فوقها شط بلاستيك وجواكن فارغة، إطارات سيارات وفرد  
بيادات، بقايا ثلج وكراطين مقطعة، رجاج مكسور وأحجار بهل، أحشاء  
طيور ولحم متفصع، عظام بخرة وخشبة كرسى منهوشة وبطة ميتة، تحت  
سطح السائل الجاري بقبل يام ررع ثني مجعد كشعر مستعار، يتشابت  
حمامات وينصم لعائلة المحلفات، يعوم حسب اتجاه التيار. تلتحم  
المكونات فتصنع غطاء يشبه الأرض، يعري العيال باللعب ولقفر من  
شط إلى آخر.

تكفل البكتيريا لتحلل كل شيء وإعادة تدويره في خلفة جديدة،  
لكننت الدقيقة المعطورة يعاد تشكيلها كل ثانية تحت أقدامنا، ومثلما  
بأنني صيوف النسا من الشر عن طريق ثاب الأدمي العرق بالأحشاش  
والصاح، كان هناك ضيوف آخرون يعدون من باب البيت الحلقي، فثرون  
وعرس ومخلوقات لرح لا اسم لها، تخرج من المجرى وتنف حول  
أعواد العاب، كائنات تشبه حوافر الحيل، دائرية مسطحة لا ملامح لها،  
تشتب بأعواد العاب وتعطيه القوة والتمسك، تهتر هزات متشحة حتى  
تصبح بعد مرور أيام سماداً يُغذّي الغاب. تنتشر الروائح كغبار طيار  
وفلوي، نعومة تسلس الرائحة فتعوق الرقة عن عملها في سحب الشهيق  
وطرد الرقيق.

لو أثار أي السلامة سيمشي مسافة طويلة أخرى. كل خمسمائة متر تقريباً مسورة في قطر حدى سي أدم، دائرة على عرص الرشاح، وكل كيلومتر يمتد حصر. يقف أي أمام الماسورة يتقدم وهو يحمل الكرتونة بحرص مبالغ فيه، خطاً نفعاً للذهب حماسي. عند منتصف الماسورة ترشح أبي، ويجمد أن على الشط الآخر، كانت قلبي ترفل ولكي تماسكت عرت إلى الحجاب الآخر، عبي على الكرتونة، وصل أبي بما يحمل، هش فأزاً مبتلاً جرى على الكرتونة بسرعة البرق، أسأله:

«قربنا؟»

«هانت.. كلها فرقة كعب».

نمر أمامنا عريات كارو يصنابق حديد زرقاء وخضراء تحمل خردة أو سائح، يقودها أطفال دون العاشرة العيال يتلقفون من الرد فلا تظهر إلا أعينهم.

ترشح خطوتي وتنفذ تجاهها، تلف رحل على أخرى وتتصل عروق قلبي. لم يبق من المشقة إلا اختيار المعبر الممتد بالعرص على الشاطئ، ماسورة تنقل المياه من الداخل وتقل الشر من الحارح. بالهار يقفز عليها عيال حفاة، والبيل تتحول فوقها أشباح من فضا في فمر المصرف، كانت الماسورة تستعمل ككوبري مشاة تسيير فوقها النساء وهن يحملن أسوة بوناجر أو قفص عيش أو جركن مياه العصور له قدرة كبيرة على الإغراء فوق أمواج حضراء، لها لون قابض ورائحة فتاة

يرك الليل على المكان، تبدو البيوت كأقزام متساندة تستعد لجولة مصارعة في حلبة مستطيلة. يقف الغاب الطويل كحارس يقط ومتوثب، ومياه الرشاح زينة مفصه، لونها رمادي وهديرها لرح، إصعاعات صعيقة نطل على استحياء كشموع على وشك النوم، وبقايا أصوات أجهدها البرع اليومي للوقاء بمتطلبات الحياة، وقبة كبيرة من الناموس والهوام يظلل البيوت، السائرون في الشارع لا يزدون على أصابع اليد، يدقون الأرض بسطء، عيال قليلون يمشون في الشارع ويقفرون في الوحل، يلتصق سراويلهم بأجسادهم، في الطين نهجهم هممة مباحة، يصعرون شغلانات ولا يقعون. أحدهم مشى على يديه وهو مشرع قدميه للسماء، ابتعد حتى أصبح نقطة ومادية في محيط أسود.

يزداد المطر، يحمم الجدران، بين الشقوق تنام حشرات بليدة لا أعرف لها اسماً، نسل الأمطار الحيطان وتعطي للقوالب لوناً يبدو زاهياً عما هو في الحقيقة.

تقرب من نهاية المشوار، ينزل أبي الحمل من على كتفه أمام عتبة البيت، يسلم الكرتونة برفق من كتفه ليديه، تستقر فوق المصطبة. يتوقف أبي قبل أن يلدح الباب. يستعد لتدبير مقدمة تليق بشراه تليغزبون، تهيج دوايات الأيخرة من داخل البيت، تجتار الباب الرمي وتصل إلى أنفي رائحة طيب استوى وطاب ولا ينتظر إلا الهجوم على الحلة. يخطر أبي مسرعاً وأن من حلقه، يعمر الباب بطرف حذائه، ينفع الباب العمولة وتقع الطاقة من على رأسه أثناء العبور.

يصل أبي إلى البيت محمداً، يملك منه التعب، لا يستطيع هش ذبابة،  
تتمدّد على الكتفة وينام، يعطّ في سبات بعيد، يبدأ العرف الممعد، من  
أحلى نومة كان يوقظني، سُفّي أُمّي شحيره مزيكاً، فُوم، أحلى من  
صوت عبدالوهاب، أممه كانت تنفّس في إجماع عيوبه، تجعلها لا تكاد  
تُرى بالعيس المجردة، وهي المقاسل تُكبر مرياه، تجعل كل من هُ  
ودبّ يراها كإعلان مصيء في ميدان التحرير أما عن رأيي أنا، لم يكن  
يستمتع إليه أبداً وما دام هو بصحة جيدة حيّاً يُرزق، لا داعٍ بعد ذلك إلى  
قول شيء.

## 14

كان نبشاً فقيراً وغير أبيق بالمره ولكه نظيف. أما عائلتنا، فمتحدرة  
من سلالة شريفة، ولكن فقرها ذكر ومعدمة، كأننا كنّا ننتمي لأسلاف  
أكثر رُفياً في زمن مغمور. غلّدت أُمّي في دماغِي فكرة أظن أن نفاياها  
لا تزال مترسبة في قعر محي حتى الآن «الشرفاء دائمت فقراء، أما الأعياء  
فكلهم أولاد كلاب».

لأسباب لا أعلم معظمها ولا أتحمّك في مجملها ارتبط مستقبلِي  
بهذه المنطقة، أسكن في بيت على القُدّ، مني أي كلام، نطل حلقته على  
سجري مصرف ثقیل الشكل والرائحة، على ضفتيه بمو عاب كثيف بلا  
حصر، تشبّع جدره من الأنوال وتشد سيقانه من سماء الغواظ، تتحلّق  
حوله حشرات نمت من تفاعلات معقدة.

تعاملت في البداية على أن الموضوع غرضي، مرحلة مؤقتة، ستمر  
لحلّها بعد عدة مشاهد كما يحدث في أفلام النهايات السعيدة، بدأ  
وعبى يتشكّل هنا، في هذا المكان الذي لا هوريب ولا هو حصر،  
كائن مشوه نأرححت مكوناته بين مخلوقات عدّة، منطقة يسكنها من  
لبسون جلال و طواقٍ وتُلع، وأيضاً من يلبسون قمصاناً ويناطيل حينز

ونصات، من يُؤثرون الطيور كالريقيس، ومن يشترونها فقط كأهل المدن، ومنهم من يسرح بالغنم، ومنهم من يسرقها.

كثيراً كنت أتناقل هذا البت العجيب، العذب، أتخيلنا بتعني إليه بشكل ما، فله جذور صلبة عصية على الحلح وساقه محوكة، أوراقه متراصة وحوافها جارحة. ولكنه بلا فائدة تذكر.

كنت أترجح على مياه المصرف وهي تنهد، رأيت ولداً يقفز حلف كرة، حاتته كومة المحفلات السامحة، انزلت قدمه وعاصي، قبّ وعطس أكثر من مرة، قطع الحراء تطفو من كل اتجاه، تطوقه أكوام هيش ملوثة ولها جذور، يحتنق الولد، يطفو ويغسل مرات ومرات، تبعد الكرة، يقاوم، يصرب الماء الأنصر الملح بكفيه، تلامحه أمواح صغيرة وتهزمه، يزلق في اتجاه القاع، تتعد الكرة، تسبح بعيداً عنه أمتار، تتوقف كفه عن لطمه الماء اللزج، يحتفي، يرتعش الماء في دائرة تقطر حزمه، دوامات صغيرة بلون أفتح تدور في المحمرة، تخفت الدوامات ويسقط الولد في القاع، يعود الماء بعد قليل إلى سكونه كما كان. ناليل، في نفس اليوم أحلم بأبي أنقذ الولد في الثانية الأخيرة، قل أن يُخدره العيش ويقعد الوعي، أخرجته ملولاً وسدسته لأمه، شكرتني وبذلت صراخها بسببهم، أعطيتي ناقة ورد وكرة كَفَر جديدة، انصرفت، فتحت عيني في الصباح وأنا أقول «حاسب.. حاسب» اعتذلت على طرف السرير، قرفعت، ذهبت أعان الدائرة المارعة التي سقط فيها الولد، لم أجد عدها أي عيال، فقط رأيت المياه الزيتية أمامي تلمع لمعة مشيرة، ومقرزة.

استقر شكل العباب في دماغي وتشعب، حدوده ثابتة، قوّة، بنشيع من مجرى الرشاح، وعلى الشط الآخر تعبر أسلاك الصعط العالي

عشتُ فما منذ مدّة لا أعلمها تحديداً، تقول أمي إن أبي صاق من لعيش في قريتنا لأسباب جاءت مشوشة في الحكايات. فقرر الهجرة إلى القاهرة دون أي ترتيبات. في البداية، سافر ليستكشف، لأمر معرفته، ترك أمي وقد نان تكوّر بطنها بأول خلفه، قضت ثلاثة أشهر عند جدتي حتى جاء قحقي أخي للنور، وبعد سبوعه مباشرة بدأت أمي تطرح على حدتي أسئلة كثيرة وتدور في رأسها هواجس لا عد لها. طال استكشاف أبي وانقطعت أخباره، كان يبحث عن خرم إبرة في مصر، اشتغل باليومية مع أنفار المعمار، غسل صحوناً في محل كشري بباب اللوق، كان القطر يفرغ حمولته من البس أمام المحل، يهجم الرباش ويتحلّقون كالمل على بروز غسل، وأبي تحلّز يده من الطلوع والنزول على حافة الحوص الكبير بأطابق بلاستيك يضاء لا عد لها، لو صُغت رأسياً سنصل للقمر، اليومية ثلاثة أضعاف ما كان يتقاضاه من عمله في قريته، ولكن الشغل عشرة أضعاف.

لم تحلّل أمي هواجسها، ألخت على أمها بالذهاب إلى مصر، رفضت حدتي، فمصر واسعة والبحر فيها بلا آخر، لم تمتثل أمي للكلام.

في فجر اليوم التالي أخرجت جراثاً زراعياً، وأعطته يومية خمسة حبيبات، باعت من أحل الحصول عليها عريشة يتيمة كانت في يدها،

كتبت على ورقة عنوان عمي الميسور المقيم منذ عامين في القاهرة، دسّ الورقة في عنقها؛ لكي تمنّ من عملية الحث والتقصّي، شارع جمعة الحضري متفرّع من شارع عرت علي، يعد ميدان المطرية محطة، علّقت عمشها المقصد فوق الحجار، جلست بمحاداة السائق وفي جحرها لفة صغيرة بها قطعة لحم حمراء متوترة المسافة من القرية للقاهرة يمكن أن تقطعها السيرة المتسكّعة في ساعة ونصف، غير أن أمي وصلت في خمس ساعات، تحسّر طهرها وفقدت الرؤية السليمة بسبب السباح وعسار الطريق حطّت حملتها عند عمي الذي لم يكن يعرف شيئاً عما حدث، فوجى بأحاح في القاهرة منذ ثلاثة أشهر أو يريد، وهو أحر من يعلم، وبعد أن كان الحث شحص واحد أصبح نائس، أمي الشابة وعمي الميسور، دها للأماكس التي يعكس لأبي ارتيادها، وبعد تعصّ مرهق وبعد أن كاد يفقد الأمل، وحده بيت عند واحد بلدنا بقيم على بُعد شارع واحد من سكن عمي.

دثر عمي الميسور بعد ذلك بأيام أوضة يتافعها، كان إيجارها ملعاً كبيراً، من أين يأتي أبي بميتين وخمسين قرشاً كل هلة شهر؟ بالإضافة إلى تعليمات أخرى من صاحب الأوضة لم يتحمّلها أبي العصبي، ممزوج في مسمار بسبب ضعف الجدران، ممزوج استخدام الحفّام إلا مرتين في اليوم بسبب طفق الخزان، ممزوج تصليح باب أو شباك دون استئذنه، الشيء الوحيد الذي كان مسموحاً به هو دفع الأجرة في ميعادها. ملّ أبي واشتكى لعمي الميسور، صاحب البيت يسمعه حتّى من قول كلمة

«يا سلام»، كانت الكلمة مستره لسبب مهم، وكانت هي الملازمة عند أبي، نج بها حمله المرتبكه كلما أرد فصلاً قصيراً، وعرف عمي الميسور، نذهب إلى صاحب البيت وأعطه بوابل من «يا سلام يا سلام يا سلام» نحل مسجّله الياباني طوال النهار على صوت وردة الجزائرية: «يا سلام يا سلام لقا الأيام».

وكنت التبيحة الطبيعية لمثل هذه الممارسات أن يطردنا صاحب البيت، وقّدّم عمي نصحه بكل ثقة: «الحل في بيت ملك».

لم يكذب أبي خبراً، عاين قطعة أرض مساحتها ثمانون متراً أو تريد ميلاً، بجوارها بيتان أو ثلاثة ببناء غير مكتمل وخلقها مصرف. دون أخذ ورد بناها أبي، كان مشتاقاً للاستقرار أكثر من أي وقت آخر. ضرب لظوب نفسه في ساحه تعد كيلو متر، ثم نقله بحمار آخره على أكثر من مئة مرة، ضرب مونة الجدران وشيّد بها نفسه، سكّف حجرتين وزاوية صغيرة، ركب لها ستارة وسماها حفاًفاً، مخر البيت بالأسمنت ودهنه بالجير في هذه الأثناء أتم فتحي عامه الأول، تحمله أمي على ذراعها.

وعندما كان أبي يتدمج بحلاص في تمحير جدار من الداخل، طرقت بذنبله باب البيت الجديد المرفّع من خشب وصاح: فتحت أمي فوجدت عسكرياً يلبس زييره وعلّق طسحة في القايش، يسأل عن اسم أبي كاملاً، ودون تدقيق في الكلام، سحب أبي يده حتى سجل مدني المطرية.

بعد هذه الأحداث بأربع سنوات، أمهى أبي خدمته العسكرية التي خاض فيها الحرب، خرج بعدها لخدمه الدنيا تعبرته، حذي طلبة تقلصت أراضه واصمحل نفوده، وقعت أسنانه وأصبح من الممكن لأي شخص عادي أن يرى صلته، فقد كان يدونها دائماً في طاقه نتيه مشعولة من صوف النعاج عرفت قدماه الطريق إلى بيتا، كان يشكو لأبي من صيق المعاش وظلم إخوانه، بضموه على كل أراضه ولم يتركه إلا نصف فدان. دخل جدي بيتا ليشكو حاله، ولم يخرج منه حتى الآن يوم جز يوماً وأسوء، شد أسوءاً وسه في قفاسه، حتى أصبح وجوده بنا هو العادي، واحداً من العائلة بالمعنى الحرفي، يأكل معنا ويشرب ويشم روائح المصرف ليل نهار.

انقسم حذي طلبة في حياتي إلى شخصين، شخص عمي وعبي مؤليه من بعيد ولا يحضر إلا في الحكايات، وشخص آخر طيب وهادئ ومستكين لا يستطيع الذهاب إلى الحمام بمفرده؟ وهو الشخص الذي أعرفه الآن، يجلس أمامي كل صباح، يحاول السيطرة على فكه من الرعشة، ولسانه يخرج أثناء الشعال.

## 15

يأتي أبي بعد يوم عمل طويل مقطوع النفس مسلوب الحيل، ومجهد العيس، يجز قدميه حتى يصل إلى الكنية، يلهث ولسانه طالع شبرين، يُخرج ورقة مبتلة من أثر العرق، يضعها تحت مروحة السمف لتجف.

«إيه دي يا بو فتحي؟»

«دي شهادة تقدير يا عيشه أنا طلعت العامل المثالي السنة دي على القصر كله».

يرد عليها بفرح طفولي ونصف ابتسامة ترفص أن تغادر ملامحه طوال الحديث.

أنظر إليه تعجب، أسأل نفسي، «ومن يكون ذلك العامل المثالي؟» شخص نمطي لا يحدث أي نوع من أنواع التميز، يحي حياة عادية ومكررة ومملة، يستقط كل يوم عند أذان الفجر، يتوضأ ويصلي، يفطر بشكل روتيني قليلاً ما يتغير، يخرج قاصداً محطة الأتوبيس، ينتظر رقماً واحداً «52» شرطين، يندفس فيه (واقف في الغالب) حتى ميدان التحرير، يتمشى محطتين كاملتين لغاية قصر العيس، يجلس في «السويتش» على كرسي مهالك، إحدى أرجله مقلعة سلك كهرباء، يشرب شايًا ويلوك

المضغعة حتى يؤذن الظهر، يذهب ليصلي في رواية حلف دورات المياه. يعود إلى موقع عمله مرة أخرى، عرفة صغيرة دهن حيطانها مقور من كل الجوانب، ويقايا طعام مراكونة فوق حائط الأزارار، على بعض الكرسي المتهالك يجلس مرة أخرى، يسحب كائنات خطوط التليفون، يُعثرها حسب أرقامها المكتوبة على لاصق طيني: (1) المدير (2) رئيس القسم (3) عرفة البوياتحية.. ينتظر الساعتين حاملاً حتى يعاد الانصراف، وعدم تنهيه مواعيد العمل، يعد الكرة بشكل عكسي لذا كان لا بد لهم أن يعطوه شهادة العامل المثالي.

كانت في عييه لمة قليلاً ما يعرف طريقها إليه، بعد أن جفت شهادة التقدير، قرأها علينا بنبرة مبتهجة ثم تمدد فوق الكنبه، غييه النوم حتى قطعت يد أمي استرساله من شحير دائم، أصبح مع مرور الوقت هو الموسيقي التصويرية المعتادة، صوب إلقاء من كثرة التكرار، يصاحب تبحر كاتبين العرف، فلا يسمع أحد الأخر بشكل واضح. تقرب منه أمي بحرص، تمد يدها بعد تردد يظهر دائماً على ملامحها، أو في رعدة يده، تهرئ كفه، يصحو نصف مستيقظ، عييه مضمّتان ومصطرتان، يسعل كالمحتصر، يلح ملابسه، بأكل، لا يسي أن يتغرغر بالماء لكي لا يفقد من بقايا الطعام التي في فمه شيئاً. بعد أن تهدأ عصابير نطه يتوضأ ويصلي، ثم يلعني أنا وأخي فتحي ويعايرنا:

«أف اللي بصرف عليكم وطالع عبي. أنتم ماتعروش بتاكلوا كام رغيف في اليوم.. سامعني يا حلوف منك له.. جاتكم الغم...»

وأتركه يثرثر، لا أتوقف كثيراً أمام كلماته، أنغاصني عن نداءه: «يا حلوف»، تصع أدبائي لئنه، كمصفاة لا يعلق بها إلا كل حشش، أتبعه وهو يبحث بعد وصلة السب عن شيء يسألني، يحاول تصليح الحلاط فيفسده أكثر، يقص أطافره بمقص تنظيف السمك، يسلك بية الحمام، ثم أسمع شخير بعد خمس دقائق يشق طريقه للحنان.

تتظاهر أنني بأنها فرحانة، مسكت شهادة العمل المثالي، تحاول فراءتها ثم تصعها في طرف أبص وتبلى الحرة اللاصق لبعدها، تُعلقه وتلصقه تحت مرتبة الكنبه، تقول:

«عقبال الشهادة الكبيرة».

دائماً كنت أحاول أن أفهم أمي، ودائماً كنت أفضل، فلا أدري لماد، رغم انتراعا للقة يوماً فيوماً، لا سال ذلك أدماً من كرياتها ولا حصورها ورحاحة نصرافها، كانت تبحث في كومة البؤس عن شئ حبيبة، ولا أعرف حتى الآن هل كانت من أصل ميسور، أم أنها فقيرة بنت فقراء؟ ولو كانت الأولى فلماذا تحمّل العيشة مع أبي، ولو كانت الثانية فمماذا لم تبحث عن حياة أفضل؟ سألته مرة عن أسبب فقرنا، قالت:

«كل واحد يحفضل نصيه».

كانت مثل هذه الردود تبدل إحساسي وتصب رؤيتي، ولكننا نفسح الطريق أمامي لتأمل معنى الكلمات.



## 16

منذ زمن لا أتذكر بدايته، يعيش معنا جدي طلبة، مات كل إخوته  
وتنقّى هو وحده وأصبح من نصيبنا، يأكل معنا ويشرب، بالليل ينام  
ويشخّر وبالنهار يسخر من خلق الله، ومن نفسه أحياناً، عند ساعات  
العصاري يغني المواويل على أنغام ناي صنته بنفسه من أعود الغاب،  
وكلّما صاع الثاني أو كُبر صغ غير سهولة، كان يشد من العود ثلاث  
غُقل يختارها من آخر العود يقيمها بطرف مسكين، ثم يُعَمّ الثقوب بعبود  
دبل هار صغير يحتمط به دائك لهذا، العرص. أسمعوه وهو يشد كلاماً  
منصوّف ومُقشّى، كلماته حرية أحب سماعها، تخرج مُنعمّة بصوت  
محوّح فيه حشجة غير تنشير، طبقة صوته تستطيع رغم تخفي الشمايين  
القدرة على الشجن.

«اللي بدر الأجويد خفف بلدهم

واللي بدر الأندال كان كفه سايب

الأجويد زي الزرع ينضموا على الندى

والأندال زي الشوك يجوا في الكعابيب

باللي بدوت الأجويد ياما نلت فائدة

كما لو زوت نهر مليان وفايض

وباللي بدوت الأندال ولا نلت فائدة

كما لو زوت أموات في حوض التراب

خلف البيت يتجمع التراب ويصنع حفراً صغيرة، أخاديد متعرجة تلمع فيها حبات المطر، نقر يحف ويغوى تصب الأحاديد محتواها في محرى المصروف، تسقط المياه في فوهة نوب بلاستيك بتلعه جدي. تنقل رحله. يوازن قدميه بصعوبة، مجرد المشي أصبح شُكْلَ حظراً عليه، يخلع بعله ويُفرغه من الماء ثم يسلسه مرة أخرى. يحف سقوط المطر شيئاً فشيئاً، توقفت السماء عن إرسال جدها، في الشاء تعيب الشمس طويلاً. وجدي يحتاجها هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى، ليس للدفء فقط، ولكن بسبب تقيبه الدائم وحسّ الممامة في أوقات فراغه الطويلة أصيب بحكة دائمة في مؤخرته وأعلى فخذيه، صحتة أُمِّي تعريض الأماكن المصادة لأشعة الشمس ساعتين على الأقل كل يوم، فاحرع لنفسه شُشامة من ستارة قديمة محاولة السح، صنع إطارها الخشبي من بقايا حلق باب قديم، ثم مشمر فيه ستارة ثقوبها لا تحصى، كان يخلع عنه لباسه كل صباح، يشدُّني من يدي لأصعد معه فوق السطح، يدخل في الشمسامة ويشلج جلده، يُعرض الأماكن المصادة لأشعة الشمس. يستد بكوعه إلى سور السطح القصير ويشرد، كنت أحلس بالقرب منه تحت

أطلب، أتابع الأحواء وأن سارح في ملكومي الخاص، وصعْتُ له سلماً شيئاً مقرطماً، صعد بعد قليل وستطرُ طلوع الشمس.

رأيت أُمِّي في طريقنا، وهي تهتم بشيء آخر تماماً.

جلّس وأمامها أربعة قوالب طوب، ترقد بينها علة صفيح كبيرة، تحت العلة لهب، تدس باستمرار خشباً ونشارة وأكداشاً من محببات بجوارها، قطع كراتين وورقاً مكوراً، يخرج الدخان ويلفها «ممرت خرج لثوه من قمقم، تسمع عينها المدمعتين كل دقيقة بطرف ملرحتها، تمص يدها على عصا جريد، في مقدمتها مسمار كبير معقوف لحطاف، تعمس العصا في الصفيحة، يحرح المسمار مرشوقاً في أدن بركة، يتدلى من طرفها قرط بلاستيك ملون، على حجر أمامها تجردها سكين له يد محلحلة. تُخلّصها من شعرها وقرطها ثم تضعها في صفيحة أخرى للشطف، تحرجها نظيفة ثم تقطعها جزلاً. بجوارها كانون آخر، لم تشعل من تحته النار، تجهزه بوقوده في حالة تأهب للاشتعال، من فوقه ترقد حلة كبيرة فيها ثقيلة ساردة، تقوح منها رائحة الشطة لحرارة لفلل الأسود وعصارة البصل.

بعد أن طيخت لنا أُمِّي آذان نهائم، شربنا أنا وجدي طلبة العرقه وقيت الممارات، سترقُ أُمِّي بعد قليل، أول ما رأتنا نحه بحر السطح ولت بصوت عالٍ:

«القرايش بابا طلبة، نُص ساعة بالكثير وتكون جاهزة».

المطر من حديد، تسقط من بين عروق التعريشة قطرات فوق التلفريون،  
صبح الصورة وتحدد معالمها، يُشَفَّ أبي الماء بكم جلببه، يضيق  
حذي طلبة عينيه محاولاً استيعاب الكائنات النظيفة الواقعة على بيتنا  
تُشَفَّ أمي كصها في جلبابها، تخرج لتُملي عساه من لمحفقات  
المسوخوطة المستحدثة، وتصيف تعليقاً لى التعليقات الأخرى التي  
بطلقت عندما أضاءت الشاشة الصغيرة.

«يا حلاوة».

«البطارية حثكفيه قد إيه؟».

«عايزين حصيرة وشاي».

يحين «تحي» وهو يضع أوراق المُلحَّصات تحت إبطه، يجلس على  
الكسه، يتسَّردون أن يلقي التحته، يقول كلمة واحدة نصيغة سؤال.

«تليفزيون؟»

يشعل حميقاً في الصدوق المصني، تنفَّ أمي حول أسس بطارية  
صغيرة، تبرمه بها جيداً، تتأكد من عدم وصول مياه المطر لأطرافها.  
يتحرك جدي طلبة خطوة للأمام، وعقه ملفوت للحلف، أمام السلم  
الحشبي أمسكت أنا الشَّمامسة الساتان، تقدِّم جدي وهو يبحث عن درجة  
السلم الأولى. في الأونة الأخيرة، خف وزنه وثقلت حركته، كان جدعه  
يسبقه للأمام وتعطَّله مؤخرته في الحلف، قدما حثرتان في التوفيق بين  
العملين. تصعد بتان في مدة طويلة لا تناسب المسافة، يسبقني بخطوة،

في قرص المنصدة دق أبي أمام أزار التلفريون حشنة في حجم  
مسطرة، كماتع للبعث في ممانجه، كان يلترم بكل حرف، قال له  
الكهربائي «التلفريون الـ 14 بوصة، شارب يابسي من اللي مات  
أسوه، وأعلى حاجة فيه الزرير»، ألقى أبي عليه ستارة قديمة، حجه كده  
إلا شاشته الصغيره، التلفريون له رراير كثيرة ويمكنه استقبال بث سبع  
قنوات في المستقبل.

قال أبي موخها كلامه لأمي وهو مدمع في تعديل وصع التلفريون  
«من بكرة الصبح تفضلي له كسوة مخصوص».

ثم يدمع في تشعل الجهاز يوصل «جاك» يتهى بمشكس،  
واحد أرق والثاني أحمر، ويجوار قدميه بطارية وايضة، ناشعة بالمنع  
مصعصة الزوايا، لها أصعاع من الزهر، ناتان عن مطعها، يصع أبي  
المشكس في الحلمتين فيحدث شرز حصف، تصصح الصورة وتسلزل  
الصوت لأذنانا.

يقف جدي طلبة وعياه ثابتان على عاريت الشاشة، الذي  
يتحركون بشكل أنشط منا، يسمع أصواتاً مختلفة عن أصواتنا، ناث  
إعلانات حلوات يملأن الشاشة، مسسات الشعر، لها أسان حليه  
وطلة حساء، متشمتات في وجوه المشاهدين بشكل دائم ننسى جدي  
هرشه في مؤخرته، ويسى طريق صعود السقف لاستحذاء أشعة الشمس  
الشحيحة، ينظر لكائنات الشاشة وهو يصع عود قش بين أسنانه. يعود

وأنا أسدده بما أملك من جهد، وصلنا للسطح ولكن الشمس لم تنل،  
ولا حتى سلخه من شعاع توتد رينا.

## 17

يدخل جدي طلبة في الشَّمْسَة ويشلح جليابه حتى بطنه، شبه  
شمس صغرت الكراكيب المتكومة فوق السطح، بدأت الأشعة تستجيب  
لمؤجرته، أنساب الدفء رقيقاً فانهكت نقطيه جدي، وقفت بحوار،  
أعدّل من وضعية شَمْسَته، وأنتظر.

المشهد من أعلى أفضل رغم البرد، تتجول غنمات قليلة وترعى  
حول البيوت المتلاصقة، تمضغ ما تيسر من الورق، تُخلّصه من المياه  
في عطف كل شيء، تحاول الوصول إلى العشب الأصفر الطالع وفي  
واشي أعواد الغاب المائلة، تخرج أبواز القطيع مختومة بالأوحال.

جدي طلبة لا يزال ينتظر عطف السماء، أشعة الشمس شحيحة، يقف  
سارداً في ديبا غير الدنيا. منذ أيام استيقظت على صوته وهو يصرخ، ألم  
شديد لم يحتمله، حرحت أهائه واهته ومذيلة بجمل التوسل، أيقظت  
أبي. فوجد جدي يقف، مركب عينه بقيضته وطرق أصابعه وتأملني جيداً،  
«مف كالتائه، انقطع الصوت وغاب التوسل، ربما كانت أصوات أحد  
الدين قضوا في قاع المصرف؟ أو مشاجرة عادية عند استلام قدرة  
بول من المستوقد القريب كان صوتاً يشبه الاستعانة، استعدادي من  
الشیطان وذهب ليكمل يومه، وقت قليل مر وبدأنفس الصوت يشق  
السكون، استيقظنا جميعاً، رأيت جدي طلبة يعصر جنبه، يخرج التوجع  
منه ببطء، سرعان ما علا صراجه، صبح محرق المصرف صدى صوت  
محيقاً واهترت أعواد العبد، استيقظ أبي مرة أخرى وهو يهرش بين

فحديه، يستوعب ويربط الأحداث في محلته ببطء، جاءت أمي وهي تحمل مسدداً تريح عليه جدي، بنكر الألم والتوجع، يحمله أبي على ظهره كما كنا أما وفتحي تلعب ونحن صغار. لم تكن هناك وسيلة نقل تسير في هذا الوقت المبكر إلا عربة يد صغيرة، كان صاحبها يتسلّم قدرته من المستوقد. بعد جهد كلامي، اقتنع الرجل بتزليل قدرة العول ووضع جدي طلبة مكانها على كومة القش.

أفقتُ ولا أدري في أي ديار أنا، أسس نائم على كرسيه ورأسه معطى شال أبيض، وفتحي يعط مثل أبي عند نعسانه في يوم ثقيل مطمش. أفت خلف البيت وجدي بلا وعي كامل، أنا مل المجري الذي يعبر النوب كنعسان أسود، يمتد طوله على مدد الشوف، نحرسه أعراد الغاب من الجانبين، البيوت تبدو غير مقنعة، كشيء افتراضي لم يحدث بعد، أو كفكرة جهنمية تجولت مراراً في دماغ مجنون. ظلال العاب على سطح المصرف الجاري كثية، والمياه المحصورة أمواجها قابضة وهديرها يدور بدماع، عائق الواقعي الجبالي فأصبح التمييز بينهما مستحيلاً. شق شمع أبيض السائل اللزج وأعطاني ظهره ثم وقف يتول، كان أطول من حافظ، عرصه كبير وشفاف وشمكه بلا أبعاد، دون مقدمات أو ترير لسبب معيته، انتهى مرة أخرى بعد أن قفز في الرشح، ثقتُ ملابسي بمياه المصرف، ساح الكلاب موسيقى تصويرية للمشاهد. نحدت أوصالي وأحسست برعة في القفز خلف ما رأيته يعوض في مجري المصرف المظلم، ميرت في اتجاه المصرف وأصبح ينني وبين المياه

هادرة خطوة واحدة، التفت خلفي عندما سمعت صوت ماء عاف، نقيق سمك، رأيت انسامته تحمل معاني كثيرة في تعبير واحد، أنس. أحملني الكبير، أقبّله وأحبك حول خصره الصغير اللفة البتة، وأسأله: «شفتة؟»

لم يحرك شفتيه، ولو حتى رمزياً، يتسم في براءة، داب كل ما ترسب من حنائه في قعر دماغي سبب الرتحة، ورعم ذلك كنت أصبر على استحوايه

«شفتة يا أنس صح. شفت الشبح؟»

نطق أمامه كلمة شبح، لم يتأثر بها، لا يزال يتسم، وكأنني أقول له «مصور» أو «كتكوت» أحياناً كنت أحسد أنس على وقوفه خارج دائرة الأحداث، فما يمر علينا لا يشغله، وكل ما يحيفنا ويعمل له ألف حساب سدوى عنه مع ما يحيفنا. نظرت لا تسدر التعاطف بقدر ما تعطي قدرة نيرة على التأمل

يوماً تأخر جدي وأبي حتى بعد المحر بمليل، عديم شئ النور القطة المظلمة وبدأت أرى مجري المصرف بتشكّل، تدلّت صور الأشباح حامعي القمامة، طلّت وجوههم عليّ من بين كثافة العاب، كأنهم قثوا من بين الأمواج، أو سقطوا من السماء.

تعلّمت من جلدي طلبة تأمل الناس كثيرًا، والأشياء أيضًا، كان يصنع من المحلّفات أشياء مفيدة، تُسميها أمي «مخترعات» أبوابًا وكوالين، مسارات صيد، هوايات عجيبة يُسلّي بها نفسه ويُفق وقته، كان يقبس من المصروف بعادة، بعشيقها في أخرى ثم يربطها بدوارة، قال لي يومًا بعمقه أربعة أمتار ونصف، لكن هيم تفيد هذه المعلومة؟! عرفت فيما بعد أنه يريد أن يصنع عكايرين حشيش، يعرّهم إلى الضمّة الأخرى، جاءت الفكرة بالفشل، بسبب عدم وجود مركز ثابت يستند إليه العكايرين، لكنه لم ييأس، صنع مركبًا من خمسة أصابع يشبهون اليد، ومساندة مدمه على ارتفاع أربعة أمتار ونصف المتر، توقّف اختراعه مرّة أخرى بسبب ضعف العود الخشبي الرئيسي، الذي لم يتحمّل الثبات لكل هذا الارتفاع. سألي جدي ذات مرّة سؤالًا لم أعرف له إجابة وقت طرحه:

«ليه الخلخال المحاس يغيرق والطشت المحاس بيعوم؟».

بدور عالم من الأفكار بشكل دائم في خياله، يسرح كثيرًا في دنياه الواسعة، اخترع ذات يوم شيئًا مفيدًا، لا يزال يستخذه حتى الآن، «البون» خشبيًا برّقاس، صنعه بمقاييس دقيقة في صبر يُحسد عليه، قدّ

لنه إصغاف من الكربون كان عموداً في حجر قلم، بقم استدارته بموس حلاقة، وربط في الإصبع مسماراً معقوفاً وعلق فيه حبل بيل، ركب على الحبل بكرة كانت مروحة عسالة، لئن الحبل بالشئ والصابو حتى أصبح يستجيب عند أقل لمسة، ثم ركب الكالون في باب السد الصابح وجعل طرف الحبل فوق السطح بشكل دائرم، بذلك كان جدي طلبه يشرب الشاي أو يعبر سيجارة وهو متسلط، وعندما يقرع صيف الساب، يجذب حدي الفتلة من فوق، فيفتح الكالون من تحت، أما لو لم يربع في دحول الصيف فلا يهتم، بجلس بعداً عند منتصف السطح، حتى لا يراه الطارق غير المرغوب فيه فيصرف.

وكان جدي دائم القول:

«في بلدني ميصعوش حاحه لحاجة معينة يبعصوا حاجة نفع لكل حاجة. ويكده بقى ميصعوش حاجة»

يُسلر حدي جلبابه ويخرج من الشفاسة، بعشي في اتجاه التزلزل، أمشي خلفه، فقد عاودت السماء إرسال جنده من حديد، تقاطع أبحال الأمطار المتصلة، أصبح من الصعوبة رؤية السماء، يتوقف جدي عند أول درجة من السلم الخشبي، يتظرني حتى آخذ ييده.

عند آخر درجة من السلم كان عدد المقرصين أمام التلغزيون الصنير قد ازداد بشكل ملحوظ، أشخاص أعرفهم وأشخاص أراهم للمرة الأولى، أطارهم مشدودة في اتجاه الصور المتحركة، حتى أس، كان على كرسيه وبحواره تجلس أُمي على دلو مقلوب، تلعب في شعره

«م وهي تأمل المعارك الدائرة أمامها على الشاشة، من أبي من مسح سد، انت المطر الساقطة بكته، قدس في مكان التقيط لفة قش كانت في فوهة زلعة حينة قديمة، توقفت القطرات فأعطى ذلك فرصة أكثر لبعبة الأحداث، المعارك على الشاشة لم تضع أوزارها بعد، دبّات حديد بحمول وجنرات يشاربون أعراباً، انتبه حدي، اتصمنا لجمع مرفص أمام التلغزيون، أصبح في ثوب من نسيج جمهور كبير يكتف عاسه لمريد من رهاقة المتابعة

«يلم إليه ده؟»

سألت «فتحى»، فقال دون أن يعيرني أي التفاتة:

«عمر المختار. العرض الأول. سيني أنفج بقى».

وبل مشهد إعدام المختار بقليل، وتحديدًا عندما طلب ماء له سوء، اضيقّت الشاشة فجأة، أصبحت في حجم الكف، وشرأت أوس الجمهور ليتمكّنوا من رؤية كائنات لا يتوقف انسحابها، الصورة ملخص، أصبحت أصغر من الكف، ثم انطاعت تمامًا، هاج الجمهور وبدأت ألتهم التي كانت حامدة تطرح الأسئلة.

«قربوا يعلموه».

«الملك انهز»

وهما وقف جدي طلبه، فرد عوده وقال بصوت علا على الجميع:

«البطارية عابرة تشحن».

## 19

في ميعاد الغسيل تسحب أمي من تحتي الملاءة، كنتُ أعط في  
 مديد، بتثنية عفية تحصل على طلبها بسرعة، تلح على أبي أن يُغيّر  
 القصير، الذي يتميز بطعنة طويلة على فخذه، ويرفض أن يخلعه،  
 لأدق كتل:

«يا وليته انتِ ماورايش غيري؟ شو في لك شغلانة ثانية يا عيشه».

يقول لها، ثم يسألني عن أخبار درجاتي هذا الشهر في المدرسة،  
 اظاهر بأنني مزنوق، لا يد أن أدخل الحمام حالاً، نللم أمي الفرش  
 مرمية في برميل بلاستيك يستخدم لجميع الملابس المتسخة، ثم تنشغل  
 في ترتيب الملاءات وتكتم الأرض المتباعدة وطلوع المخذات في  
 الشمس، ظلمت تعمل بالنمّاج وإخلاص حتى بعد الظهر بقليل

خرجتُ من الحمام متكاسلاً، أخشى أن يسألني أبي مرة أخرى عن  
 درجاتي في امتحانات الشهر. تركته ووزنت الأجواء بالخارج، عيال  
 حجري، تتسابق على شط المصروف، يزفون عربة الكسح؛ حتى تنوه  
 عن الأبطال. لا جديد، رائحة المصروف المعادة وقطط تقعر من سطح  
 أبي آخر



بعد قليل، يأتي حار أعرف ملامحه ولا أعرف اسمه، يجيب وله عذ  
طويل أحمر ورأس صغير كالديك الرومي، أنفه حاد ووجه مزرور، يد حار  
مُنكس الرأس محتقن الملامح، يجلس بجوار أبي وأثر النعاس ياد عم  
ملامحه، الرجل يلبس جلباناً قصيراً من الخلف بشكل ملحوظ، يرفع  
طهره المحدود، وأبي يلبس جلباناً مزوفاً قرابة شرع أعلى فحده.  
يجذب الجار جلده لأسفل، يُقرّب فمه من أذن أبي يهتج إليه بكلمات  
مشوشة، لم أستطع فك طلاسمها، يترك أبي المقطع في نوبة تُظهر مساحه  
كبيرة من شعر فخذيه، يضرب كفّاً بأخرى ويقول:  
«يتقول إيه؟»

يصمت الجار، ويُكمل أبي الجملة:

«جاين يهدوا البيوت بالبلدوزرات دلوقتي؟»

ويطمئنه الجار الذي بدا خبيراً بكل ما يحدث:

«هَمّا لسه عند الشط الثاني».

ينصرف جاري الذي لا أعرف اسمه، فل أن تُدبّر له أمي تلقية شاي  
من الجيران، يحرح بسرعة، لا يريد أن يوحه له أحد أسئلة إضافية، فور  
انصرافه أسمع طرايطش كلام يدور في الأجواء، وكأنه نما من تلقاء نفسه  
دون قائل:

«البلدوزرات قريت»

برنظم بعض، بعض، سنحبط جميعاً في حيطان بيتنا المسي على وش  
الأرض بعد سماع الخبر. الوحيد الذي لم يتأثر هو أخي أنس، يجلس  
دما هو على الكرسي المتحرك الذي لا يتحرك، يوزع نظراته الريبة على  
كل من يمر، يتسم برقة ويُروّج بلا انتران كفه الطالعة منه خمسة أصابع  
بحيفة كأعواد نقاب

أسمع أصواتاً عالية تنهت سرحاني، كأنها تخرج من الحيطان، لم  
كن حقة، فالحاقيات في عربة العقاد لها طرق محمودة، تبدأ بصوت  
حاهر وكأنه حديث حار من القلب، ثم تتطور إلى مشادة، يستمر فيها فقط  
القادر على الاحتفاظ بقوة أحالة الصوت لآخر التصعيد، لكن ما سمعته  
كان صراخاً يعلو وكأن مصيبة على وشك الحدوث، يلف حول البيوت  
عيل يقرعون من شط المصروف إلى الشط الآخر، الجلبة غريبة هذه المرة،  
محتمة تماماً عن هيصة الفرجة على عربة الكسح، كان صياخاً يعلو دون  
ندح، أو أن تصطك وأنصاف عبارات، مع التركيز يتهجر الكلام:  
«خزّجوا الناس الأول».

«حيهدوا البيوت».

«وشع يا بني آدم».

«أبو الحكومة».

يخرج أبي بالجلابية القصيرة المقطوعة عند أعلى فخذيه، يشرب  
عقه وهو يستكشف ما يحدث بالحارح، يست على وصعه كنمثال شمع،

أسرع وأقف إلى جواره، أستمع للحلبة، يشوش صراخ العيال على ما يصل من كلمات، ستارة عاز تحجب الرؤية، أسمع صوت للدور قادم، صرير عجلاته وزحف حوافه يرداد وصوحاً، تُسهّل استيعابي لحقيقة ما يدور على الأرض، يقترب المارد الحديدي ومن حوله عساكر تجري في كل اتجاه، كحشرات أفرعها المبيد، فرقة منهم تجري، ومن خلفهم كلاب في أحجام جحوش وجسده ضواري، يقوّض فيها المتحجر للتقضاء لحام مُدغم بأسلاك، وأمام اللدور صباط يهشون الهوام وعار الجير عن ملابسهم المهدمة، يلسون نظارات شمس كبيرة تتلغ وجوههم، يمشون بخطف بطيئة ويرفعون رؤوسهم أكثر مما يجب.

يريد عدد اللدورات، أراها ثلاثة أو أكثر، في أعقابها هيصة وعويل يصدر من جميع الاتجاهات، يسيقها غبار كثيف ويقدمها عساكر بهرات ودروع يهرولون في اتجاه، بحر حون الناس من البيوت، أو العشش، كما يردد مساقو اللدورات كانوا حريصين على إحلاء المساكن بسرعة، لا يهيم عشش أو مقتنيات، الأوامر عندهم الحفاظ على أرواح الناس، فقط الأرواح، تداحل الأصوات ويستحيل تعبيرها «يا هوووه.. أبو الحكومة العشة.. الي عاشينها.. الله يخرّب بيت يلعن دين..»

وأي يجري أمامي فأقد الكرامة والهيبة، والهراوات الميري تطرقع على مؤخرته..

«مشي يا ابن الكلب.. بسرعة يا ابن الكلب.. خذ معاك ولاد الكلاب  
د ل ١»

ويمشي أسي صاغراً، لا يسمع له أنه حاص الحرب، يبرطم، ترداد استنائم قسوة، وجدي طلبية يقوم ويقعد كمن أصاب دماغه خللاً، يضطرب عيابه ولا تقويان على الرؤية، يرفع فوقها كماً مجهدة ترتعش، يحاول الاستيعاب بحواس مستهلكة تعودت أن تتعامل ببطء مع مختلف الأمور، يجري بجسده استصعب المشي منذ ساعة، كان يعاقر من أجل البقاء، يحمل عكازاً يتحادل هو الآخر ولا يقوم بدمهته يحاول استيعاب المشهد ويقشل، فلا يبقايا صحة تُحرّكه، ولا شخص «فاصي» يسجبه، لم تشفع له صورته مع الرئيس جمال عبد الناصر، ركض في مكبه، لا تساعده خطورته لصيقة على اجتياز المدخل والخروج للبراح، بظله لسعة هراوة وشتمة فوق البيعة، من شدة الارتباك يجري في اتجاه الدحول إلى اليب

كانت أمي أنشط منا جميعاً، أول أهدائها أحي أس، تحب الكرسي لمتعثرة عجلاته في الطين، مرة تدفعه للأمام ومرة تجره للحلف، تنفس نارناح عندما تُحرّجه بكرسيه قبل أول قطعة عشش، ثم تطلق صرخة حادة وهي واقفة بجوار الكرسي:

«القطعة.. قطعة أس»

لا تنتظر مساعلة من أحد، تركز للداخل، لا تهتم ب«الصوت» وشق الهدوم، ولا بإطارات اللدور الثقيل الهاجمة بلا تمييز.

«استني يا عيشة».

يقول أمي تخرج أمي بعد قليل، وهي تحمل على دراعها الكائن الصغير الذي يتغضز مروداً بالغبار، تقطر القطرة بحوار كرسني أنس تربض باستكانة وهي تنفض عن أذنيها الجير والتراب.

تبدأ أمي بهمة نقل كل ما تستطيع للمحارج، طليخة بأكلها، شماعات ترتدي ملابسنا، كسة مقلوبة ومعبأة بمواعس، مرنقة، ضلفة دولاب مفصلاتها مقطومة يشك فيها أسنك وبحر حلفها لباس حدي الدُمُور، تلطم الصلصة وجهي، تأخذ في بسكتها بصف سيّتي الأمامية، يدخل إلى فمي عيار كثيف لا أستطيع معه متعلقاً نُسُجَل، يرميها العساكر ويدوس عليها بالس، وأبي يجلس كالصنم فوق مصطبة دكان الأطرش المواجهة للبيت الذي يتم إخلاؤه بسرعة.

حدي طلبة لا يزال نالداً حل، أجري، أركل باب البيت وأقهر، هدي الوحيد هو إخراجها، مسجته من جلبابه سريخاً، كان بجوار السرير يحمل بروراً تحت إبطه، حطوته بطيئة في وقت لا يحتمل بظنًا، لا نرى موصوح، شورة الغبار نخفقا.

«بسرعة يا جدي».

قلت له.

«ماحدث يموت ناقص عمر».

ردّ عليّ.

سائق البلنوزر لا يتفاهم، وشوكة الوحش الحديدي تقرب من بيت حارب الذي لا أعرف اسمه، تعوض في الجدران السويسري المنسبة على ش الأرض، لا تجد أدنى صعوبة في اقتلاعها يحرج الحيران فارين مني وضعهم كما هم، من يأكل خرج وفي فمه لقمة، ومن تغسل خرجت مشققة ورغواوي الصابون تغطي يديها حتى الكوعين، ومن يلعب من الأبطال يصري وهو يحمل اللي أو الحلة أو عطلان الكازور. أحد الحيران وقب يسب متدنّزاً يستدرة حشمة منهكه الورود ومرتقة، بظ من انطسب أثناء استحمامه، تنش أي نسيح أمامه وتلقم به. وآخر لم يخرج إلا بعد أن لظمه عسكري غفني يكعب بندقيته، فتكوّنت رهرة دم صغيرة على حسب فمه المرموم.

توقف «نوكس» وينزل منه رجال يلبسون بدلاً بطيعة، وتلمع على كتفهم رتب محاسبة على شكل طائر.

يمسك أحدهم بمكر صوب.

«أي بني آدم خايف على عمره يخرج بزه حالاً، مش هكزّر ثاني».

يقولها «ستهتار شديد، كمس يُلَغ أبنائه أن لو أحدًا سأل عليه فليقولوا له راح مشوار، بُئرل مكبر الصوت عن فمه، يرميه لعسكري ينط بجواره كأنه يدوس على صفيح ساخن، تنفض هراوته بين يديه، يلقف مكبر الصوت ثم يقف خلف الضابط الكبير.

أحرج وأنا أر تعجب، أحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه مع أمي، ألقني بكل ما تطوله يدي للخارج، قر واة، ضلفة دولاب، طليخة، أحذية، انكسرت

رلعة حبة قديمة وتناثرت أشلاؤها المُشَرَّبَة بالمش، تخرج رائحتها الفواحة عن السيطرة، يقع رميل العسيل المتسح، تدلّق منه الهدوم وتُسحّل تحت أقدام غليظة، كيوم قيامة مُصغّر.

«إنتو ظلمة وكفرة».

يقول أبي موحّها كلماته لأصحاب الهجوم اللامعة والصور النائمة والسيوف المتقاطعة.

«يَا لَإِذَا رَجَلُ يَأْسِ الْكَلْبِ، لِمَ كَرَاكِيكَ وَهَلَاهِيكَ وَأَمَشِي مَسَكَاتِ»

يُرد أحد لاسي الميري وهو يشير بعصاه في الاتجاه المعاكس لموقع البيوت.

وصحّت الرؤية أكثر عندما طوقوا صف البيوت، أمام المركب يقترب ثلاثة عساكر، كل واحد بمسك في قبضته حزيرًا، ملفوف بين حلقاته حل كنان، الحبل معلق في عنق كلب، والكلب أسود في حجم نمر، يتقدمه لجام يُقَوّض فمه، عيتاه شقيقتان وشقوق لسانه الحمراء تظهر من بين سيور اللجام. يتبع العساكر الثلاثة بلدوررات ثلاثة، كل بلدورر يقوده رجل جهيم، تقف على ظهره كتيبة عساكر وتلف من حوله كتيبة أخرى. يحوار العساكر يقف صابط كبير ترقق نجومه الكثيرة في الشمس، وأسفل النجوم طبّينة.

في لحظة هاجمة ومباغتة، تطلق البلدوررات ومن حولها كائنات درعة، يوحى الشهيد بأنهم مقبلون على حرب، عار البيدات أفندي لرؤيته لشواب، وإطارات البلدوررات العالية تسحق كل ما يقبلها في نفس اللحظة، أماط العساكر اللجام عن وجوه الكلاب، فطلقت هائجة، لسانها طالع شرس، يلحس كعبي، تشبّ مخالها، تحاول هش ملاسنا مركص، وإلى العدهرب، تترك العقش والمتعلقات، بل تترك بعضنا بعضاً، تلت يدي من يد حدي ويقع، أحاول سحبه، ثم أتركه، ثم أحاول مرة أخرى بحصط العسكري بمسافة آمنة بين عم الكلب والهدف، حوالي متر فقط، خطوة بين أيباب الكلاب وملاس الهاربين، ألتفت في كل قمرة لقياس المسافة بين الوحش الضاري وطرف حذائي.

خرجنا في ذلك الصباح مذعورين، هلعين، كحشرات ضلّت طريق المحصور، هاج المروج ودّع البط، فرعت الأطفال ونهاوت الجدران، جلة لا يمكن وصفها بدقة؛ فالجميع في حركة مستمرة تستعصي على المساعة، حتى ععشتا المتهلك تمزّد عليا، وكان الأشياء تلتسنتها فجأة أروح خائفة وأبّت ألا تطاوع، فُسحت ضلفت الدولات وتحول إلى كومة من الحشب، فرشت مدحل البيت الصيق، تعلّق حرف المرنة في بين جنبش مدلى من السقف؛ فتناثر قطعها المقنت وملا أنفي غباره العطن، اشكت حواف الحُصر مع طين الأرض، رقصت أُن تُرم وتطبعني

بهزول للمحارج دون مداسات، أمي تحمل كل ما تستطيع، وأبي تان فحلده من الطعنة المميزة لجلبابه القصير أثناء الركص، يجري معي

أمامنا وهو يرتدي فاقلة عليها شعار نادي الترسانة، وينظرون بيجامة أحد مقلم وشبشب بصباح.

عبار حش كتيّف يحشو أنوف ويلبد فروات رؤوسنا. نُكوّم سرعة، نقى من أشياءنا، صدوق كوكاكولا أحمر دون رجاعات، فرو حروف، حمالة رير، رغاغة شمسية يدها مكسورة، مخترعات حدي، الكالوناد، حل، المرحبة الجريد، دخلت الكراكيب في عناق، حالة عشق حميمه جعلتها تمنى بعضها بعضًا.

يسبّ الناس من حولي بكل أنواع الشنائم والبلدور ماص في مهمة واحدة لا يجيد عنها هدم بيوت، أو العشش كما يقول العساذ والباشوات لأبسو العيري عشرون بيتًا لمظت أحشاءها بالحارج، ناس وعش وأحلام ممارسات صغيرة لم تنم، تنقت من البيوت فقط الهياكل، تنتظر دهم البلدور فوق الجدران وتحويلها إلى ركام.

تتقذف بقايا متعلقاتنا للحارج بواسطة أباد غريبة، أرقمها هذه المرأة من المعيد، أطباق محار بعضها سليم، كيس بلاستيك أسود مليئة بقوارح أدوية، مشاية أطفال، قُلة بها ملح، كُت مدرسة مهروسة، طبق غسل فاقد لجزم من الذابير وخارجة من قعره طوية.

تعلو أصوات الناس في رمجة جماعية، ناعنا حوامل العساذ، تركز أقدامهم كل ما تقابله. وقبل أن نهم شيئًا، بطير عشنا في الهواء، يتقار قطعة قطعة، كتبت تلفظها مكة عرق القطر قبل التنجيد.

بعد قليل يركض مرّة أخرى، وجمهور كثير من خلعتاير كفض. يرتجف أسي بالخارج، وبما أنه رب البيت فازتجما جميعًا، كصف ألعاب الممتد

ل المصروف عندما تهزّ ريح، ثم نهذا؛ نستكين ونتابع المعجزات، ملح اللحظة الفاصلة التي ستحوّل حياتنا إلى قبل وبعد.

يعترب البلدوزر بطء وحش يرتص بعريسة، ينتهي في دقائق من هدم ت الملاصق ليشا، يجبي الدور على حدارنا التي تنقت من الوليمة، انت الأسنان الحديدية تسعة عشر بيتًا في أقل من ساعتين، وبيتنا يقف بيت ينتظر دوره، لم يشفع له أنه متعمر ومدهون بالجير، هو الوحيد الذي كان مدهورًا، وكان هاليسيت مجازية، فقد بدأ العول الهجم جعله فعلًا ماضيًا، فور خروجننا جميعًا، ضربت شوكة البلدوزر البيت مرة واحدة فخر صريعًا، غاصت أسنانه الحديدية الثقيلة في الجدران ناله يقرمشها. يعمل الجدار الأول، تنكّل هريمته السريعة ما احتصان بقية الجدران، يقع السقف كتحصيل حاصل فوق الجدران، وكأنه مُصر على أن يكون سقفًا في جميع الأحوال. تنكّمت البيوت الضعيفة تلالًا من الركام، وأجزاء صغيرة تستدعي فور رؤيتها الذكريات

ردم العساذ الدس الواقفين، وطال الطيور والعصاير، غطّى على كُتل الطوب الكبيرة، وقطع رجاج مشورة بجوار أقدامنا. تحت الجدار ارتعش دُر كبير، نصفه عند الذيل مزنوق، والنصف الآخر يحاول الخروج سيّث بشوارب لم تزل متنبهة. تتجول عينا بين الركام والسماء وأسأل عني:

«هل كنّا نحتل هذه الأرض وتم تحريرها من قبضتنا؟»

تهمد الأصوات البشرية بعد انقشاع حيوط الدحام من فوق رؤوسنا، يرداد تهيق الحمير في جلبة جماعية.

## 20

تُخَفَّ إرالة البوت أطناناً من الركام، يقفر حولها عيال عرابا، يتسابق دووهم في إيقاد من يمكن إيقاده، وعربات كارو تسجول بين الأنقاض كالسور بين الحيف، يتساول أصحابها لنمل العفش، تترجح عجلات عرباتهم الكارو وتنفذ الاتجاه، تصدر بعيداً حزناً، سير أماما الجنازات وأحدة تلو الأخرى، العفش مسحى والملاءات مرفوعة على "ملل" الأسر كالأعلام، يرفُ العربات عدل حصة جاءوا للفرحة من مسطو أخرى، تبعد العربات بأحبالها، تمشي ببطء دودة تجرّ بعضها.

بعد أن هذا الغبار وانصرفت الجرافات بعساكرها وباشواتها، بات المسطر عربياً ويصعب تصديقه. تحوّل المكان الذي دُشِنَ لأكثر من نصف عربي إلى حراب، الأرض معطاة بركام، لم يتحول في مراكز الوعي بعد إلى ركام، كانت المواقب لا تزال تصرح من كل شيء طارحة وساحنة، أشلاء الجدران ماثرة كقايا جود في جش مهزوم، جوانب الحيطان مسمرة، حيرها منساقط، وكل الطوب تحشم على أنماس متعلقاتها. أقف وأقعد محاولاً استيعاب ما حدث، أسمع في أذني طيناً طيناً، يعلو ثم يعاود البطة، ثم تُعاد الكزة، وأحس في عيني وملاً تحوّل الأجواء إلى صخرة باهتة.

في محيط السوت، أعيد تقييم المنطقة التي عشت فيها الشطر الأكبر من طفولتي، وأعيد كذلك ترتيب أوراق الشخصيات التي عشت معهم وكأني لم أكن أراهم، فلفاً انفصوا وتمرقوا رأيتهم، من يكون ساكو عرة لعقاد؟ هم ليسوا سوى موطس من أقل المراتب، وإن لم يكونوا كذلك فهم حريون فلهويون، وإن لم يستطيعوا تعلّم صعة فهم قطع عُرق، وإن لم يكونوا أيّاً من هؤلاء فهم ليسوا من عزة العقاد.

كل متا يحاول تذكر شيء ما عن البيت الذي كان، تلتقط عيادي من الأجواء متعلقاتها المدفوعة في العمار، بين أكوام الركام، أحده هالكة بلا حوارب، فردة بوت أبيض بلاستيك بعنق طويل، كفة ميران، شحشيحة، مربطة قش مقطوعة، وعوط، بروار بلا صورة، غلب كشري هارعة، شطاطات ملوثة، إطار دراجة قديم، لحام حمار، القوّالة مشحوفة، يتدلّق منها القول النني، تنوء حباته بين الحصى والطوب.

حدر الصدمة يدوب ويتلاشى، لم أعد أرى إلا ما هو واقع بالفعل يعثر البلدور كبير الحجم بداخلي، يتمشّي في الممرات، طعم الغبار في فمي، شكل الجدران مقورة الجير مهوشة المحارقة، نمر المشاهد أمامي على هيئة صور متتابعة لا تثبت لعدّة طويلة.

عربت الكارو تمر أماما، كأني أطياق في محيط حلم، تعوض حوافر الحمير في الأرض بسطة وتجرجر يوقاً طويلاً، والعجلات المنمجة تهرس الطين وتعلل الصياح بأريز واهن، تمر المشاهد كما لو كانت مُعلّمة بطبقة جليد زجاجية خفيفة.

أفئق من ناملاتي على واقع لا يمكسي تعبيره، والحدث الرئيسي، هدد البيوت، يتملص ويهرب، كدحان ندد، يتدفق إيقاع رتيب، تتحول موسيقى التذكّر إلى لحن نشد لا يالي بالعاريس مامت الظلال، وكلوبات متدثرة فقيرة الإضاءة ترحح من بيوت كانت أوفر حظاً، أو لم يأت عليها الدور بعد، لم تهدأ دوامات العمار التي خلفتها البيادات وحوافر الضواري النابحين، ثم طُمست معالم الضوء الضعيف.

تعريتنا في ثوال، صرنا أقرب للحظة مكاشفة شفاة لا تكذب أطراف حصور تظهر من تحت أقماعنا، مناخذ مكسورة، جزء من كرسي حمام بجواره إطار صورة لأبي وأمي، نطل ملامحهما المتشمة من تحت الأنقاض، يصع يده على كتفها، جره يظهر من شالها الأسود يُغتشه العمار وبقايا الجير المتطير، بجوار الروار متعلقات بسيطة تهشمت، صندوق خشبي لصنع الصابون البتي، كوز الخياطة مقلوب، ولا يظهر أي من محتوياته، صوان إبريق فحار عاقداً للرق والبربور، فردة ششيب ربوية تعوص في بقايا مَش قديم، رجل يتطلون بيجامة تلحس بقايا طعام من على سطح طلية، جره مدس في حرف امرأة يطل من داخل ملاة سرير، ستارة متسحة الحواف ملفوفة على شماعة ملابس طويلة ومتشعة ومزق من بقايا هدم، شرشيب ستارة تهرها ربح معترّة ككلويحة وداع تناجينا من تحت الأنقاض.

نقف جسمنا بالحرح، نتراشق بالظنرات مع أولئك الذين يشاركوننا نفس المأساة، رجال بالبيجامات والحلايب يسون للعشة واللي

عاشيها، ونساء بعضهن لا يزال يملأ جفوهن أثر النعاس، يبحلقن وهن مصممن فتحات قصصان النوم، ليدارين مساحات لا بأمن بها نطل من اندائهن، وأحريات يجدن أهداب القصص وهن جالسات على حجارة رصيف، يتأملن الغار والفراع، وأطفال حفاة لم يلع المشهد براءتهم، يجلسون بالقرب من حافة المصرف، يصنعون عرائس طيبة وسوافي من أعواد النعاب، لتطلع خلف البيوت المشوارة. أحد الأطفال الكاد يستطيع المشي، يحصص حصاناً بلاستيكيّاً صاعث أر حله، يجلس على حجر رصيف مقرضاً بعد أن ققطت أمه ديل جلبابه حرفة من قماش، حتى لا يتنوت ظهره بفصلاته

فرش أبي حصيرة، أسند رأسه إلى حلة أنوميوم من محلفات الإزالة، أحد يتقلب وهو نائم لا يرتاح على أي جنب، ظل لغره نائمًا على ظهره وعياه نائتين في فراغ لا نهائي، ينظر إلينا جميعاً نظرات من تلك التي لا أستطيع تحميس قدر ما تحمله من إحياءات، امتلأت حدقاته بالدموع، استكثرت دموعه أن تترلق وتكشف عليها، تابع سحابة في السماء لم تستمر طويلاً. نكي جدي طلة

«وحد الله بقى يا شيخ».

رد عليه وهو مقرض ويبعث في الحمصى، خرص مؤقت أصابنا جسمنا، صمت تدور فيه أفكار تستعصي على الصبابة، لا ينظر أحدنا إلى الآخر آخر حسي صوت حذي طلبة من الصمت المطبق، لذي استسلمت له:

يا رايعين عندهم هناك حبابي كتار

وأنا بس اللي قاعد مستقي ياخولوني

شدت قلوب مركبي وبقيت من الشفار

حروح لهم عريان وهما اللي يكسوني

بعد الانتهاء من مواله، قام جدي طلبة، حرياً في حري، أعطانا ظهره ووقف وسط أعواد العاب التي لا تزال شامخة، شلح حبلابه وسول في مجرى الرشاح، ثم أخذ يبحث عن شيء ما تحت الأنقاض.

تفتت الغيوم في السماء كقطع قطن كبيرة تطير ببطء. همدت عريمتي وأوشكت على النوم، وردت طهري فوق أقرب كومة محلفات وسرحت

21

هديم الليب وأصيح علي أن أعيد بناءه من الذاكرة، كلما احتجتُ إلى

ذلك

بني «فتحي» من مدرسته، يحهد نظره الضعيف حلف نظارته، نحذ عن البيت، مُسح من على الحريطة، لم ير إلا أمواج الحراء تهدر من حلف، وحشرات تخرج من بين الركام، كادت هشة ترعاً إلى رحلت لنبي ستندأ فيه المصروف المعادة تهضر ولا تبالي بناء، وانحتها تحدث خللاً في الدماغ وتثر على الرؤية غشاوة سميقة من الغازات، يضرب لعاب مسابجا مفرغاً حول مجرى السائل الثقيل. ننام جميعاً وأعيننا «معجزة»

على بعد أمتار، رأيت عم شافعي يمسك بمنجله ويحش البرسيم، بحلس مرفصاً، تنغرز بُلغته في وحلة الطين، يتدلى لباسه الدمور ويلمس الأرض، طاقته البنية موجة على رأسه، يجمع البرسيم في صمت، يضعه أمام عزة عجفاء متكومة بجواره، بعد قليل يترك عزته ويرسيمه ويقترب منّا، يمسك منجله ويُلوّح به.

«قلت لكم من الأول دي أرض حكومة».



جاءت العترة وراءه، مسحت يوزها في جلبابه، شمسدت في الأرض والتقطت بين فكّيه ورقة من المحلقات، مديده إليها بعص عيار الرسم، أصبحت يده تعمل ككائن مستقل ومتصل، لسانه يعمل في اتجاه آخر، وأردف:

«ما نتم عارفين ان اليوم ده حاي حاي. بس مش ده المُشكَل. المُشكَل حتملوا إيه دلوقتي؟»

لم يرد عليه أحد، فأنصرف ساحتاً عن عه العجماء من أدبها، ذهب بعيداً وتعشّر عليه رؤيته، أصبح كقايأ شحّية تحلّفت عن حلم قصير

نقدف ولد في مجرى المصرف قفصاً مربوطاً بحل، يمسك طره في يده، يغيوص القفص، يسحه بنشاط ثم يلقيه مره أخرى بعد أن تحممه مياه المجاري. يجلس بجواره طفل آخر، منهك في جزأ، ميت ومشوق مثله. يقف الطغلاان ويُسَلِّحان ملاسهما، يمسكان ما بين سيقانها ويوزّجانه لمجرى المصرف، يتراهان على من يوصل سر سوبه الساخن للمجرى أبعد من الآخر.

يتضمم الولدان لولد آخر، يصبرون ثلاثة، يقفون ملاس عارفة في الوسخ، أكبرهم يُعلّم رقيقه فتح المطواة من نظرة واحدة، يفتحها بسهولة ثم يرفع جررة في الهواء، يستقبلها بحد ملاحه فتشطر إلى نصفين وتقع في الوحل، يلتقطوها، يلتهمونها ويضحكون، ثم يرفع أكبرهم إطار سيارة نقل كبير، ويأمد أحدهم في تجويفه، يدفعه صديقه حتى قرب المصرف، وقبل المجرى بتر واحد يكسحان الإطار ويعيران وجهه،

ل بعد ذلك الراكب ويركب أحد السائزين. فوق الماسورة النائمة على عرص المصرف يمر العيال بصديقهم المتكور في تجويف الإطار كبير، يصلون بسرعة البرق للشط الآخر، يُخرج الصديقان صديقهما، ينف ثلثتهم والطق أمامهم، كأهم ينتظرون التقاط صورة تذكارية، ثم ينفقون الإطار بدفعة جماعية قوية، يسقط في مجرى المصرف، يثر الماء البترولي اللوح على الشاطنين. يصحكون بصوت مرتفع، يعيرون من الأنظار تتعثر على رؤيتهم بعد ذلك، يحتفون بين أعواد العبد التي تحب الشاطيء الآخر.

أرحت ظهري على ريع جدار وقع كاملاً، جزء أحفظ ملامحه جيداً، به فتحة منحنية وغويطة، صنعتها خصيصاً لأخين فيها أوراق امتحانات اشهر التي كانت تحصل درجات فاضحة، كنت أقلد إمضاء ولي الأمر برفق، زورتها كثيراً لنفسي، مرة واحدة فعلت ذلك لفتحي ودائماً كنت أوزرها لناصر صاحبي.. حتى الآن لم يعرف أحد بهذه الجرائم.

أسندت رأسي إلى كتلة سليمة من العجدار المهتم. حاولت إزاحة  
 ثمار ما حدث عن تحيلاتي، مرت أمامي أحداث مختلفة، ورايت ملامح  
 الأشخاص لم أتذكرهم منذ زمن، نبت أمامي شريط سينما بطيء.  
 لا أدري لماذا جاءني «ناصر» الآن، لماذا احتل دماغي، جلس وترجع  
 في هذا الوقت بالذات، في هذا العمر، ونحن ملقون في الطل، هل  
 يحور أن أتذكر «ناصر»؟ ربما اسدعه درجاته الفاضحة. في حياة كل  
 إنسان سر ما يريد أن يفتشه، يفضحه، حتى ولو قاوم كثير، هذا الشيء  
 دوماً بالنسبة لي اسمه ناصر عرفته أنا ومطر اوي أثناء لعبنا باللعلة على  
 شط مصر، كنّا فريقاً أسميناه «أسود الرشح» كان ناصر أصحهما،  
 طويل كلاعب المصارعة، يدخل به مشاجرات ونكسها، قلّة شارب  
 مكمل كأبنا، كما كأطفال من حوله، وكأنه بذلة نمت في حفلة ذرة،  
 ندرك صحاحته وشاربه المكتمل، فيعاملنا جميعاً كالخوة صغار رغم  
 أعمارنا المتقاربة، أنا ومطر اوي في الحادية عشرة، وناصر في الخامسة  
 عشرة، كان فاصل له كم شهر ويطلّع بطاقة شخصية، سيستخر حها  
 عائليّة بالمرّة.

«الواد ناصر اتجوز».

يتطلق مطراوي كمدفع:

«يا شيخ».

أقول له، فيقسم بحلفائات أمه:

«والحتمة الشريفة، وحياة سيدنا الحسين الواد ناصر اتجوز، ومعد

سيدي نصر الدين كمان».

لم أسمع بهذا الأخير من قبل، لا بد أنه كان يعني شيئاً مهماً على أنه

حال.

ناصر؟ الشاب الصغير تروح. مند عام واحد كان مرك شنتطه وحذاءه

في الحوش ديلأع العازصة ويقف يحرس المرمي، تروح، الحب

والجنس والخيال، ستدور وحى معارك كثيرة فوق السرير وحلف الباب،

بحوار الكبة أو تحت الدش، لا بد سأعرف أنا والواد مطراوي كل شيء،

اسمها، لول شعرها أي نمحة عن هذا الشيء السحري المسمى بالجنس.

ناصر صديق خدع لي يحيي علياً شيئاً، مسأله وسجيب بالطبع، ما هي

ألوان القمصان التي تُحبه روحته الطفلة، هل يضاًجعهما على صوت

الحتمة وهي تسقط على المواعين المعدنية في حوض المطيح؟ أم

يُفصل أن يضعط حصرها ويياعتها من الحلف؟ سيجعلها كل ليلة

قطرته، ستطر إليه وعياها عائمات بتداخل الرغبة مع التشوة، ما احتلاط

الفرحة مع الألم، لا بد ستقول له: «مش قادرة» وسيقول لها «وطني

منه دن» سنعرف كل شيء، سنقتش سر ناصر أو سيفتشه لنا مجاناً، دون

نطلب منه ذلك، سنعرف كم مرة يفعل في الأسبوع، بل كم مرة في

المنة، لماذا يترك السرير أصلاً؟ لماذا يترك الحجة من أجل لعب الكرة أو

من الحللة؟ في داهية فريق أسود الرشاخ. ستجتمع وتكون دائرة حول

ناصر، ستوجه زعيماً على شباب أسود الرشاخ، سنستمع ونحن نسمع

حكاياته التي لا بد أنها ستجيب الأنفاس.

قطع مطراوي تصوراتي الناعمة بصوته الخشن:

«الواد ناصر دا واد عيل».

«ليه؟»

سألته.

«عشان مش عايز يقول حاجة خالص. وقاللي: هو أنا أهبل عشان

أكلكم في الحاجات دي يا تافهين».

يقول وهو يضحك ضحكة ساذجة تليق بلامحه المفلطحة، انفطرت

مسحة أحلام حكايات ناصر على لسان "اللي يشك" الواد مطراوي..

لقد فشلنا ولعدة مرات في أن يتحرك هذا الجبل البشري المسمى ناصر

بأي بدنه ولو حتى «فسر»، بذات أنا ومطراوي بتصوّر، نتخيل ونكتفي

بدنك

تيمخر ناصر من دماغه، عاد للأحداث التي مر عليها أكثر من عام،

استقر في مكانه المجهول على لوح الذاكرة، اهتمامات حقيرة لا تأس

المصيبة ولكنني رغم ذلك انتشلت بها، تستحوذ عليّ نقائص الأشياء في وقت غير مناسب.

أشعر الآن بمرزبة تدقّ رأسي، تُفتت مُخي، يتناثر فتحتلط أجراؤه الصغيرة مع الحصى والقبار.

## 23

أسيه، أعود للحظتي الراهنة عندما أرى «فتحي» يقف فوق رأسي، لبيوت التي هذّت حيلًا في تشييدها أصبحت تراثًا، والعيش الذي لم يعب الحظ في إنقاذه كاملاً صار ركائماً، ينظر إليّ أحبي ولا يتكلم، أحياناً لا يستطيع الواحد أن يُعبّر عما يراه مناسباً، يتقهقر، يعود إلى مرحلة ما من اختراع اللغة والكلام، يجد سلواه في الصمت والتأمل.

تحاول أُمّي تغيير الموضوع، كعادتها عند الشدائد.

«خير. من يمكن كانت البيوت تنطبق فوق روسنا. ماحدث عارف الخير فين».

عنا نحدث محاولتها في الترويح عنا، لم تكن أُمّي تصدّق ما تقول، ومثل هذا الكلام طقس يؤدّى والسلام في ظروف كهده، تنص في التخفيف عنا بطرق مبتكرة. تخصّ أبي بكلامها هذه المرأة «حنقي كويسين يا أخويا.. وحتعتل».

كل الحوارات مقتضبة، مقتضبة، لم نجد سبيلاً إلا امتسلا منا للصمت. بعض الجيران قدّموا لنا صواني شاي مُدعّمة ببقسمات، نرقد

في الطل، يقرمش وتأمل الفراغ، بدور حديث عن حل لوضعنا الرأى بين أبي وجدي طلبه.

أنكرهم يحلمون، أصرف النظر عن الركام الذي حلقته الإزالة، على الرصيف تقف عربة كسح تعطي مؤخرتها للمصروف؛ لتصرع محتوياتها في محراء، تستدعي رائحتها معص وتقلصات ورحة تجتاح أمعاني، تحرق شعيرات أبي، عارات جهنمية تحتل الإحساس وتلد في دهال المعدة ومؤخرة الدماغ طوال فترة الشم، تنهش الهجة وتسطو على كل المساحات المرحية في الحيدان، لا تخرج إلا بعد انقضاء فترة العقوبة، وأصراف العربية ببخلها وكائناتها الأبرص.

تتسلل من لأحواء رائحة حل حامض، يسبح فوق طبقة سمبكية من فضلات تمكّنت منها بكتيريا العفن، تنسج الرائحة أدحة تدمع العين وتعطل الإحساس وتفتح شعيرات الملح على تقش احتمالات حينية هي مقدمة العربة بغل اسودّ لونه؛ لكثرة ما كسّخ من غائط وأوال وسوائل عسيل، وفي مؤخرتها رطل أبيض ثابت الكثيرة، شعرة مهوؤس كلثاده، شاحب الوجه ممصوصه، يمسك بحرطوم حلد طويل، رلومة كاوتش مرحية ومربوطة بدوارة في حُطاف حديد، يلك الرحل عقدة الدوارة فتنتصع الرلومة، يوجّه العوثة للمجرى الثقيل العربة تحمل حزان أسطوانيًا سقط دهانه من كثرة التشبع بالملوحة والعازات، يقف العمل ساكنًا حتى نرفع محتويات الخزان، ينظر الرجل ملامح محتقنة كأنه هو الذي يفرغ بطنه لا العربة.

أتأقّل تقسماط الحيران، أقشّر بإطفري سمسة محروقة من فوق أحد العيدان، أتابعها بدقة وهي تسقط على الأرض، وقيل أن أدس العود بين أسابي، أحرى مقاربه بيه وبين آخر مرة أكتئ فيها تقسماط، أفصي وقتًا طويلًا في التذكّر، متى كانت أول مرّة أكلت فيها هذه العيدان المحمّصة؟

أصع رأسي على حدة ألومبيوم مقبوبة، أشتك أصابعي على صدري وأسأل نفسي: «منذ متى ونحن نسكن هنا؟» على وجه الدقة لأعرف، في سنة ما من سنوات التدرّب على نطق الكلمات، كنت أحمل طوبًا مستعملًا من بيوت مهاره مع أمي وأخي، بكدسه في مكان واحد، أشيل مع أبي أبواقًا وشبابيك من ركن مخصص للخردة في سوق الخميس، يصعبها عند رطل عجوز يجلس بملابس رقيقة، في يده منجل يجمع به محصول أخضر، يسقيه من مياه قابضة تهدر على بعد متر واحد من أقدامه المملطحة بالروث والطين، ثمانين حبيها ثمن قطعة أرض كانت مملوكة أصلًا للدولة.

هل يعرف أبي ذلك؟ لا يعرف أنها أرض حكومة، هكذا كان يقول، بسى وتوكل على الله، شديت أفل ما يقال عنه أنه «بركاوي» طوبه كالتلفاس، لم تدخله مياه ولا كهرباء، أم الصرف الصحي فتكدّلت أمي بنشائه، في البداية وضعت طستًا قديمًا مقبوبة، مكّنته حيد، في خُص بينه وبين مجرى الرائحة المعادة أقل من مترين، حملت قاليب من الطوب

وبلتهما بالأسمت، وصعتهما ليصحا دليلاً، أصبح بيتاً للتعف وليس  
للراحة، مدّت مسورة لا أعلم من أين جاءت بهاء لتقل الفضلات  
لمجراها الطيعي بعد مدة اشترى أبي قاعدة بلدي ليست عموم  
كاختراع أمي، لكنها كانت تستند إلى بعض المقاييس.

ناه المتسبب المباشر في وجودنا هنا، تفرّق صاحب الفضل في ذلك  
بين الحكايات، فمرة يقول أبي إن عمي الميسور هو الذي أشار عليه  
بهذه الفكرة الههنية، واقتنع بها أبي بعد تكرار المشجرات به وبين  
صاحب الأوضة الإيجار لأسباب مفعله وغير مقعه وفي رواية أخرى  
تقول أمي إنها كانت تشتري حبيزة من عم شافعي، ثم دار بينهما حديث  
طويل عن الأرض التي هي أصلاً ملك للحكومة، انتهى الكلام بإبرام  
صفقة الشراء.

«وليه اشتريتي مادام في الآخر الأرض حتروح للحكومة ثاني؟».

أسألها فتجيبني:

«اللي ملوش ورث بورث في الحكومه. وبعدين الملك حتر  
يا حبيبي. حترن والني».

أنتقلت حولي، أبحث عن هذا الميراث، وهل الحية تسكن سقفه،  
خشيتاً يحوي بين شقوقه أراضاً وتعاين تندلى من الفواصل كالحرق  
القديمة.

«يا سلام على نعمك يا رب. صحيح الملك ملك يا ولاد. الأرض  
مدوس والهوا فوقها بلاش»

نزل هدم البيت بليلة واحدة، كان أبي يقول وهو ينظر للسقف،  
«الفواصل تنقطع بقايا أمطار، ممزوجة بالغبار وزيل الحمام وفصالات  
لعمروح والبط الذي تربيه أمي فوق السطح».

كان قد بيتنا المجاري باعًا على الحيرة، ولكنه بداية لمرحلة أخرى  
 تليق، تلاشت دهشتنا وتحولت إلى قلق مستمر مما هو قادم. صرنا  
 نك لتقلبات الرمن، أصبحت كل الاحتمالات متوقعة، اقترب المحر  
 لعيش لا يزال كومة هرمة تعمل كحليمة لصورنبا الجماعية، حدي  
 ملة مندثر يكليم كالمكسرات في ورقة خلّاش، وأبي يظن إيت صمت،  
 سمع صوته فقط عندما يعفو، رفرات منقطعة تنعج الكرب وتزيع الهم  
 ، يختصر ما يدور في نفسه، سرعان ما تنتهي بزمارة شخير يعلو ويهبط،  
 حسب قدره الرئتين على سحب الشهيق وتحني يام مقرقضا، تساعده  
 حافته على البرم في أي نسيج والسلام، أما أمي، فحليتها منقطعة وقلقة،  
 مومنها لحظية، متوترة للقيام بشئ المهام في أقل وقت ممكن، وبوعي  
 ناسل لا تعوزه بياهة، برعم هلة جيلها في نقل العيش و لمتعلقات من  
 داخل البيت قبل هدمه، فإنها كانت أشط مّا جميّنا ولا يقن عر منها عن  
 عرم الرجال

سألْتُ حدي طلبية عن الساعة، كن سؤالا فائدتة الوحيدة أمي أريد  
 محاطة أحد، أريد أن أشعر بوجود ناس وأحداث وزمن يمر. رأيت  
 ملامحه مسوطة في العتمة، شديقه مهدلان وملامحه محتقه، أخرج

السلسلة من صدرته وتأمل فيها طويلاً، ثم قال بحسرة من سحب من قايها عمرة:

«أربعة وثلاث. العرقب راكب ع العرقب».

تَهْتُ قليلاً عن الأجواء، ذهبت حيث المنطقة الواقعة بين البنت والحدرد. سرحت في الملكوت، هناك عند السبع الطباقي وضرب، الأحلام، حيث تتشكل الأسماء وتتكون اشتغاقات الكلام، رأيت البيو المهذبة مسحة كحوت ميت يتحلق، ورأيت هياكل عشباً مُشرعة في الهواء، وفرقة مريكا بالدعوف تلف من حولها، يتقدمهم كرش مهيب يحمل فوق قننه طلة، بجواره مرمار متصب، وفي مهاتنه شديق واحد مموح، ورجل آخر يُبَيِّن خصره بالرفص كما النساء، عرفوا مقطوع، «مال القمر ماله» سرعان ما تلاشت آثارهم بعد أن وصلوا إلى مقطع «البي ميري ع العرياري» بعد وقت لا يمكنني قياسه، عصفت بالمكان أشباح لم أستطع تحديد ملامحها، تنازعتني أنصاف كوايس، سمعت أصواتاً موححة اختلط فيها رعب المسعدين بهتاف المتصربين صحوحت محاولاً الهروب من أنصاف خيالات صعبة التجميع.

اختلطت الأصوات في أذني، شخير أبي بمحرك سيارة بعيد، تمسح العفش وطققة الجدران.

حرحشت ذاكرتي للصبي ثم عادت سريعاً، دون أن تمسك بعراشه الراحه، بطرت حولي وأنا أحاول استيعاب ما حدث، فبين عشية وضحاها أعطت الدنيا قماها، هزت ربح حفصة العفش النواقع، مثل الأسرة وقلوب

أجل وقوائم الدولاب، اهترت الأخشاب ومالت متمترفة كوحش كبير عطلع

نفل حمن أبي وفي السوم عط، ارتفع صوت الموسيقى التصويرية معتادة مرة أخرى، لم تصف أبي شخيره في هذه الظروف بأنه مزيكا، أبه أعذب من صوت عبدالوهاب، كانت تائهة بعيداً، شاردة، تتوسد مذهي قضيتها، تجلس مشدودة ومتأهة كحلسة حارس، تستعد في كل سر للبقطة الكاملة، تنه وترمش من أقل بداء، من صفير الهواء، من مسك الضمادع، وأحياناً من لا شيء، تفيق من غفوتها، تصوّر المكان نظرة سريعة خاطفة، ثم تعود لملكوته المتقطع، لا تصحو بشكل كامل إلا عندما يتوقف أبي عن مناجاة الملائكة في عياهب الأفلاك، وكان صوت الرمارة في حلقه تصريخاً لها بالأمان.

يشق السماء عن نور خفيف، أُدحرج حجراً كان راقداً في مكانه مد مسين طويلة، أرى من تحته حشرات ترحف، كائنات عربية الهيئة والحركة، صرصار له ذيل يمشي ببطء، فراشات سوداء منبطحة لا تطير، مثل طويل له هيئة مخروطية كالدود. الدانة هي الحشرة الوحيدة التي أكن لها بعض التقدير، أسامحها إن هي انتهكتني، ربما لأنها قادرة على الطيران، فم لا يملك أوجهة للتحديق يكون دائماً في مرتبة أدنى إراحة كائنات أعطت الفرصة لظهور كائنات أخرى بذيلة، وبسرعة عربية قبل أن تترك المكان وترحل طهر ورثنا بعد أن أصبح ما أ فيه واقعاً لا محالة لم يعدرني الذهول، أحاول مرة أخرى تجميع المشهد حتى بمكسي فهم



ما حدث، أُحْدِثَ في أشباه وأنا لا أقصد رؤيتها، تختلط الناس بالأحداث ببعض الخيال.

اكتمل الصبح وبنت معالم الأشياء، ظهرت قطعه الأرض التي عشت فوقها سنوات طموحتي صغيره حذًا، أقل بكثير من حيزها الذي كانت تشعبه في محبتي، شريحة صئيلة على شط مصرف، ضاق هو الآخر فجاء مجراه الذي كنت أراه معرض السيل أصبح بنقليل من الهمة لا يساوي أكثر من فترتين، كان أني يُصوِّرُ لـ وحوذا في هذه الحرارة على أنه نعمة من ربنا، وكأننا بصطح يومئذٍ على مجرى للذهب المصهور حتى العيش، عندما كان منسقا ومرصوفا كانت له أهمية، أما الآن، وبعد أن تكوِّم ماضيا تلال الحردة، اكتشفت تلاشي أهميته وريبعها، تحوَّل البحر الكـ إلى جدول وتحولت الهالات العظيمة إلى مبالغات سخيفة. في هذا المشهد كما تتحرك حركات ميكانيكية بظنية، لا يملك أحدا الشجاعة للحديث عن بصور مستقبلي لما تستمر عه الأيام القادمة.

داوت أحاديث جانبية عن سبب ما وصلنا إليه، تحوَّلنا جميعًا إلى أطفال، كل منا يهتم الآخر بأنه العتسب في إفساد اللعبة رأيت أني للمرة الأولى بعيدا عن كونه أنا أحشاه وأسمع كلامه، تحوَّل إلى رجل عادي رأيته بعيني يخاف من العساكر والضباط، يجري أمامهم كشخص هادئ. عقله. لم أصدق أنه هو نفسه لذي سألني مدي ساعات عن درحات الشبه في المدرسة في هذه اللحظات القليلة الكاشفة تأكد لي أن أني لا يخاف فقط من لمرض، من الجنون، من الموت، ولكنهم لو اخترعوا مصفاً لعلاج الخوف، سيخاف أن يُجرَّبه.

سألتُ حدي طلة مره أخرى عن الساعة بعد أن مر علي دهر، فحملق كما المرة الأولى وقال:

«حسنة وبص إلا حسنة العقرب راكع العقرب»

تكوِّم أني مقرِّفاً كعجين كبير، حصص في تجويف صناعته أعمدة سرير والخمصر المقرودة، كان يود لو يدخل في الأكواب والحلل. داري بيده الشق الفاصح في جلابه، لأكثر من عشر سنوات وهو يفرح به، فهو هدية حاته من الحجار، كان يتباهى به وكأنه أبة من رخارف لمحمول.

سرت في بدلي قشعيرة، كتَّ شيه نائم أقاوم العياب عن المشهد، أحاول أن أرى ما يحدث لـ بعيني أنا، لا من خلال ما يُقال من كلمات، نعل حمي فتركت عيني يغمصان، أو كذلك هُني لي، صرحت في أبي، «أنت لتي جتنا هنا، أنت الس»، يصعني قفما واحداً شديداً، أقهر بسبه في مجرى الصرف، أستقر قليلاً في القاع ثم أطفو، أقاوم العرق، أبق، أفتح عيني، أتأمل العفش فأجده كما هو، وأنا نائم بجوار حدي طلة

«الصلاة خير من النوم»...

قم أبي واعتسل، توصاً، صلى الفجر حاصراً وأمامه أطلال عفش  
مستب وأشباح بشر يتعلمون استعلت أُمي هذه الدقائق حتى تغمض  
عبيها المجهدتين وريح يدها المتعب كانت تغمض لثابيتين وتفتح  
في الثالثة، تراءى بصف وعي كما لو كنا طيراً حط أمامها فحاة بعد أن  
تكشرت أجنحته وتحطمت عزمته. في وقت الغفوة السريع تأخذ  
ملاحظتها صراخ المفكرين وشرود الفلاسفة، وهي الثابتة التي تصحو  
فيها كانت تبسم كما لو أنها تعتذر عن لحظات الغفو التي تركتها فيها.

من بعيد رأيت ظله، جاء يدب الأرض، أعرفه من الباطن الطويل  
الذي يلبسه صيفاً وشتاءً، عمي الميسور، ظهرت زوجته كخلفية له  
وبجوارهما نوال تحمل صينية طعام مغطاة بملاءة، حطها عمي بيننا في  
نفس توقيت إلقاء التحية

«صباح الخير».

قائلها ولم يرد أحد، فالحفون متعبة من السهر بعد البحث طويلاً  
عن التماس. جلست زوجة عمي وبدأت تضع البيض والبطاطس في

## 26

مساعات قليلة تمر، تقف أمامنا عربة نصف نقل تموج معها رائحة ربل عجم، يرل معها عني متلفاً بلاثة كبيرة، يشير لسان نرفع المنقولات، نحيل مهذود ويغن حاسنة يحمل عشفاً الفقير. نُصِرُ جدي طلة على الجلوس في «الكايه» ويوافق أبي بصيق، يمشي حلف السيارة مع أبي وفتحني.

يحملني أبي، نفزة واحدة أتكرّم بجوار المنقولات، أناملها، تمشي السيارة وتدوس على الركام، أتابع العجلات وهي تهتر فوق الجدران الممعة وتسحق رقبا المنعلقات، تطلق كسرات أطباق بلاستيك، مشورة، تلوّ الأرض الرمادية. في نظرة وداع أخيرة، أدمع حركتها السريعة من فوق صندوق السيارة.

أتكرّم بحوار كراكيب كان أعليها اكتشافاً بالنسبة لي، قلة وشعث أمني روزها وحصصتها لتخزين الملح، درج قديم بلا مكتب، كور صاح كان منذ سنوات معياً بلين أطفال جعلته أمني كوراً للخياطة، تصع فيه إبر، من كل شكل ولون، إبرة مسراجة، إبرة لضم خرز، إبرة معقوفة لتصلح الأحذية، تنصاعد الأحجام حتى تصل إلى إبرة تمجيد طولها ربع متر، عن طريق محتوياته كانت ترتق كل ما مُزِع من ملابس وترفي مقدمة ما

ساندويشات وتورعها، كان أول من مد يده هو جدي طلبة، خطف ساندويش وانتظر يد بوال لكي تمحه واحداً آخر على مصض. بدأت أدس في فمي بقمة، وأبي وفتحني أيضاً، أما أبي فرلث وقرقت بحوار زوجة عمي تشق الساندويشات للرجال مثلها، لم تفعل ذلك بدافع الجوع أو المساعدة، كانت تريد أن تقول لزوجة عمي لسبب أحسن مي فأنا أيضاً أجيد صنع الساندويشات للرجال. وقع من أرعة العيو بعض المسمس في حجر أبي، فلقته في كعها وسقته:

«نعمه ريتا برضه.. حرام تقع على الأرض».

قلت ثم قامت بهمة، أحصرت «البا حور»، بحثت عن أكواب الشاي حتى عثرت عليها، قرصت وأعطتني راحة بلاستيك فازغة ملائي بسرعة من دكان الأطرش. بعد أقل من عشر دقائق، كان كل ما يحمل في يله كوب شاي.

يقترح عمي أن نذهب معه إلى شقته الضيقة بالمطرية، جدت زوجة عمي دراع جلدي طلبة قهّم واقفا وهو يعدعها كع الممسك بالساندويش ووقف في منتصف الدائرة، يتظر ما سُبعر عنه نتائج التهاوض. وينفض عن قبة جلبابه صفار البيض.

بلي من حوارب، وتحيط ما وقع من حملات فانات ونشد ما ارتحى  
من أساتك ألبسة.

كنت محتويات الكوز تُمثل لأُمِّي عدة كاملة وعتادًا محترمًا، يساعده  
في تصييع حملات صدر لها، تستعين بأقمشة تُفترض أن عمرها انتهى،  
تبعث فيها الروح من حديد عن طريق الصبر وكور الحياطة، باطبل  
صاقت عليّ أو على فتحي أو لفات الفتة لأس، تمرقها وتقصها بمقص  
تطيف السمك، تُخَصِّر ملاءة قدسية تقورت من متصفها ولم يتبق منها،  
سوى الدابر، تشقّها وتضع منها يياصات لبوسائد، وإذا تقوّرت في  
الوسائد الطويلة قَصَّتْهَا للقصرية، وإذا حدث نفس الشيء مع القصرية  
جعلتها مناديل، وإذا بليت المناديل ركنتها في المطبخ لحمل حله  
أو ككة أو براد. حتى القصب، قص التي تشحتها من الحياطة، كانت تقصّها  
شرائط في عرض أصح، توصلها في بعضها عن طريق كوز الحياطة،  
فيكمي طولها سارعًا، ثم تلقها على شكل كُور في حجم بطيخة، تعمل  
منها السجاد البلدي الملوّن وتفرشه على الكنبه.

أرى أمامي فقص عيش مخملاً، أكان لا بد أن أراه الآن؟ ربما حصر  
أمامي ليذكرني بالمشوار اليومي لطابونة العيش البلدي، كان صاحبها  
شيخًا ملتحيًا اسمه الشيخ ناصر، أذهب مع أمي وأنا أحمل الققص تحت  
إبطي، تعطي للشيخ ناصر ربا لا صحيحًا، فيشير لها تحت الطاولة الكبيره  
المرصوص عليها العيش:

«حتاخدي كام انهارده يا ست عيشه؟».

يقول لها، وهو يدس الريال في سيالة حلباسه الملطخ بالدقيق  
والعجين:

«أربعين رغيف زي كل يوم».

تقول له وهي تفرط طرحتها على طول دراعها، تجلس تحت الطاولة  
ونبدأ في فرز العيش، فوق الطاولة مرصوص عيش مفقّع ووجهه محمر،  
أمد يدي لأنلقظ واحدًا فتمسكه أُمِّي وتسحبه مِنِّي، تجديني من كهي  
فأنزل معها لتحت.

«نقي معايا أربعين رغيف».

نصول وقد أبحرث بالفعل فرر خمسة أرعة، تصرّها في طرحتها،  
درات الدقيق تتحول في فضاء الفرد بشكل مستمر كالهوام، يتعلق  
بعضها بإشارب أُمِّي الكحلي القصير الذي كان طرحة طويلة قبل  
حويله لأربع إشرابات لا يشعلها الصهد الطالع من الفرد ولا الدقيق  
المتطاير الذي يستقر بعد رحلة طواف على الأرضية البيضاء المقلقة،  
لا نهتم سوى مرر أفضل خبز موجود تحت الطاولة.

«أنا باخده للفراخ. ما انت عارف يا شيخ».

تقول أُمِّي، يقف الشيخ خلفنا يتابع عد الأرغفة.

«وهو أنا سألتك؟ ما انتي حُرّة».

يرد عليها، ققطاهر باندماحها في جمع العيش ونمّه في طرحتها، تعد

نصوت عالٍ:

«خمس وثلاثين. ستة وثلاثين».

تُكمل أمي عدد أربعين رغيماً بالتمام، تُحرج من عبها شلثاً، تعطيه للشيخ ناصر وهي تبسم ابتسامة عزيز قوم:  
«هات بالشلثن دا بقى عيش طري. أصل الثاني اللي احنا خدناه د  
للفراخ».

لا ينشعل المرء متعقبيها، وأشعل أمان لرهة مع رجل أسود عرفان  
يقف أمام صاحبة العرن، يمسح مقدمتها بأسطنة مبلولة، ثم يرمى سحب  
الطاولة برغيغ نقضة أو رغيغف.

أحمل أنا الحمسة أرغفة وتحمل أمي الأربعين رغيماً ومخرح، ترفع  
طرحتها الثقيلة، ترص العيش المعيب على القفص، فيشكل ما لا دأنا  
يطول الأربعة المكمومة تحت الطاولة تشويه ما، رغيغ عحيه مكموم  
فلا تظهر له دائره، مسيح من اتحاد واحد، مقود من الجرة المحمص،  
مخدوش ومحمص أكثر مما يجب، أبيض وباص مواء، فاقد لجره من  
الوش أو محروم من القعر ترشّه أمي ثم تصنع فوهة الحمسة أرغفة  
السليمة، أرفع القفص فوق رأسي وأمشي خلفها.

أعرف من كثرة التكرار أن الفراخ التي تقصدها أمي، هي أنا وفتحي  
أنزل فقص العيش من على رأسي، نفرز أمي الطري مه وتضعه في  
ضرة، جلالية قديمة خرجت من الخدمة بعد مجهود شاق، تُعلقها من  
أكمامها في جنب صغير بازل من السقف؛ حتى لا يطوله النمل أو تهشه

المصراصير أو تسلفه العناكب، تصنع بجوارده كبسا به مسحوق فو ناشف  
ومضخون تصنعه من تحويشة بواقي السندوتشات، تعفش فيه بصص أو  
ثلاثاً، وفي أوقات الرضا تُلقني في الحلطة بعض أوراك أو أحصه، أو  
ذروجة كاملة ذبحتها بعد أن كانت على وشك الهلاك.

تنتهي أمي من شق الخبر الصريح الطري وتطر إليّ والوجه تترنح  
في الهواء:

«دول لأبوك. غلبان منانه انكشرت».

ثم تشير إلى العيش المشوه: «واحا بقى يا حبيبي نقرقش من دول  
لحد ما يخلصوا».

تقول وهي تضع ما تبقى من الخبز المعيب في قرن البوتاجاز  
«الأطلس»، تستخدمه للحرين بعد أن كُتبت جميع شُعنه مد سنوات.  
«طب وجدي طلبة؟».

أسألها، فهو في أشد الاحتياج للعيش الطري أكثر من أبي، فترد  
«جندك عنده عيلة سنان. إنما أبوك غلبان مبقاش يقدر يطحن زي  
الأول».

وأملت ذلك الخبز الناشف، وحده الفقر هو من أتى به إلينا وليس  
أي سبب آخر، أدرس النقمة مه في طبق الملوخية فتحرج بيصه من غير  
سوء، أحمل عليها قطعة بطاطس أو كوسة أو حبة فاصوليا فتندحرج  
سريعاً ولا تقص عليها، كما هو الحال مع العيش الطري؛ الذي يطوع  
في التكرور والتحور إلى «ودن فله» فيسهل أكله ويسهل هضمه، تقول

أُمِّي إِنْ الْعَيْشَ الْبَاشِفَ يَنْبَغُ فِي عَمُوسِ الْحَبْنَةِ، وَيَحْتَسُّ الْمَعْدَةَ قَبْلَ شَرْبِ الشَّاي، وَلَكِنِّي أَرَى مَكَانَهُ الْأَصَحَّ عِنْدَمَا تَهَالٍ عَلَيْهِ تَهَشِيمًا يَدِ الْهَوْنِ الْحَشْبِ، نُحَوِّلُهُ إِلَى قِطْعٍ صَغِيرَةٍ قَبْلَ أَنْ تَلْقَى بِهِ فِي حِلَّةِ عَدَسٍ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى فِتَّةٍ مُحَسَّسَةٍ وَمَدْعَمَةٍ بِخِلْطَةِ الْبَطَّائِلِ وَالنَّقْلِيَّةِ وَالْبَهَارَاتِ الْحَزَّاقَةِ.

كَانَ أُمِّي يَعْطِيهَا الْمَرْتَبَ الْمُرَاعِصَ أَوْ الْمَصُورَ فِيهِ وَيَقُولُ لَهَا:

«الَّتِي يَفْصَسُ مِنَ الْمَرْتَبِ شَيْلِيَةً بِأَعِيشَةٍ. وَحَلِّيَ بِأَلِكِ إِنْ الدُّنْيَا إِذَا حَلَّتْ أَوْ حَلَّتْ».

فَتَذُتِرُ أَمْرَهَا بِالْحِيلَةِ، وَعِنْدَمَا تَسْفُ الْمَرْتَبَ كَثْرَةُ الطَّلِبَاتِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي أَبَدًا، يَجِيءُ دَوْرُ أُمِّي الَّذِي لَا يَنْتَهِي أَبَدًا، تَرْبِي الطُّيُورَ فَوْقَ سَطْحِ الْبَيْتِ الْمَلِكِ، الَّذِي كَانَ حَيًّا يُرْزَقُ مِنْذُ سَاعَاتٍ، تُسَمِّنُهَا مِنْ قَشْرِ الطَّيْحِ، كُنَّا نَأْكُلُ أَحْمَرَهُ وَنَتْرَكُ لِلْفَرَارِيحِ أَيْبَصَهُ وَأَحْضَرَهُ وَنَقْرُقُ أَسْوَدَهُ فِي سَهْرَاتِ اللَّيْلِ الطَّوِيلَةِ، نَعْدِرُشُهُ بِالْمَلْحِ وَنُضَعُهُ لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الشَّمْسِ، تَرْمِي أُمِّي لِلْفَرَارِيحِ أَيْضًا الطَّيْحَ الْحَامِضَ، وَكُنَّا نَسَاهُ الْأُورُ الْمُتَحَلِّفَ عَنْ طَقَاتِ الْعَدَاءِ، وَالْحَزْ الْبَاشِفَ الْعَمَنَ نَعْدُ صَبَّ الْمَاءِ عَلَيْهِ وَنَحْوِلُهُ إِلَى فِتَّةٍ، ثَلَاثَ فُرُوجَاتٍ وَدِيكَانٍ وَبَطَّةٍ، رُبَّمَا يَرِيدُونَ وَلَكِنْهُمْ أَبَدًا لَا مَقْصُودَ، تَسْبِيحُ الدِّيكِ لِنَاجِرٍ بِوَجْهِ أَحْمَرٍ يَأْتِي مِنَ الْمَرْجِ رَاكِنًا دُرَّاحَةً بَصْرًا، مَسْتَحَبَّةً مِنَ الْحَلْفِ بِصُدُوقٍ حَزِيدِي كَبِيرٍ يُمْكِنُهُ اسْتِيعَابُ خُرُوفٍ، تَعْمَلُ لَهُ أُمِّي كُرْيَايَةَ شَدِيدٍ ثَقِيلَةٍ حَسْرٍ، يَجْلِسُ أَمَامَ الْبَيْتِ عَلَى الْمَصْطَلَةِ، يَرِشُهَا وَهُوَ يَمْسَحُ الْعَرَقَ الْبَارِدَ مِنْ وَجْهِهِ بِكُمِ جِلْبَانِهِ الْوَاسِعِ، تَحْرَحُ أُمِّي وَهِيَ تَقْبِضُ عَلَى جَنَاحِي الدِّيكِ، تَعْدِيْدُهُ لَهَا:

«وَالَّتِي لَوْلَا الْحَوْجَةُ بِأَعْمِ مَنصُورٍ مَا أَيْبَعَهُ أَبَدًا».

يَتْرَكُ الرَّجُلُ كُرْيَايَةَ الشَّاي، يَلْقَفُ مِنْهَا الدِّيكِ وَيَهْمُ وَاقِفًا:

«وَيْتَا يَسَدُ عَنَا وَعَنْكُمُ وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ يَا سَتَ عَيْشِهِ».

يَقِفُ السَّعَرُ عِنْدَ جَنْبِهِ وَنَصْفٍ، وَتَزْحُزُّهُ أُمِّي إِلَى جَنْبَيْهِ تَقْعِيدَ عَلَيْهِ

مَسْأَلَةَ الْحَاجَةِ.. يَنْتَهِي الرَّجُلُ مِنْ آخِرِ رَشْفَةٍ فِي كُوبِ الشَّاي، يَقُولُ:

«مَاذَا بَرَضَهُ هَاكُلَ فِيهِ عَيْشٌ يَا أُمِّ فَتَحِي. وَرَبَّنَا يَكُونُ جَمِيعًا».

تُلْقِي أُمِّي بِالْدِّيكِ خَلْفَ الْبَابِ الْمَوَارِبِ فِي حَرَكَةِ تَفَاوُضٍ آخِرَةٍ،

يَتَسَاعُ الرَّجُلُ الدِّيكِ الَّذِي يَقَعُ بِسُرْعَةٍ لِلدَّخْلِ وَكَأَنَّهُ مُتَضَاعِفٌ مَعَ أُمِّي،

فَتَقُولُ وَهِيَ لَا تَنْظُرُ لِلرَّجُلِ صَاحِبِ الْوَجْهِ الْأَحْمَرِ:

«بَعْسُ الدِّيكِ ذَهَابَ أَفْضَلِي أَوَّلَ إِسْمَارِحَ د 175 وَأَنْ أَلِي مَرْضِيَّتِي».

تَرْدَادُ مَلَامِحِ الرَّجُلِ أَحْمَرًا، بِرَمِ كُلِّ مَا نَاهِي الْعَرَقَ، يَقُولُ وَهُوَ

يَعْدِيْدُهُ بِكُرْيَايَةِ الشَّاي الَّتِي تَسْحَبُ حَيَاتِ الْتَغْلَ عَلَى حَافَتِهَا:

«يَقِي زِي مَا أَفْضَلُ».

وَقَبْلَ أَنْ تَرُدَّ أُمِّي يُشِيرُ لَهَا الرَّجُلُ بِكَفِّهِ كَمَنْ لَا يَرِيدُهَا أَنْ تَتَكَلَّمَ:

«وَحَيَاةَ حَيِّيكِ النَّبِيَّ مَا أَنْتِي قَائِلُهُ حَاجَةُ تَانِي».

نَدْبُ أُمِّي لِلدَّخْلِ، تَحْصُرُ الدِّيكِ وَتَضَعُهُ فِي الصَّدُوقِ الْحَزِيدِي،

الَّذِي حَفِظَتْ مَنَظَرَهُ مِنْ كَثْرَةِ مَا حَمَلَ طَيُورًا مِنْ تَرْبِيَّتِهَا وَهِيَ تَقُولُ:

«عَلَّيْتِي وَحَلَّقْتِي بِالْغَالِي. حَقُولُ لَكَ إِيَّاهُ تَانِي بَقِي؟».

## 27

يسرل حدي طلبه من الكايسه، يبدأ في فك السله، يتحرر العفش  
من قيوده وتقع حلّه، يواصل في الأجرة، ويقول له السائق إن عني دفع  
الحساب كاملاً

تتظنني نوال بالخارج، تعاتبني عيناها، ثم تلاطفني، تقول:  
«نورتوا».

ثم تنقل عينيها إلى العفش.

تخط السيارة حمولتها، يتأثر العفش أدم شقة عمي الميسور، أقفز  
من فوق المقولات لأشت لجدي أني يقط، أفرك عيني لأنفقد المكان  
وأعزف عليه. أعمدة إصاعة متباعدة تسبح سايات غير مكتملة بحوار  
بيت عمي. سائم من هواء لطيف تهب عند ناصية البيت، شرفات مرئية  
بالأرهاز ودكاكين تعرض الحلوى والحاجة الساقعة، عموت وأنا وقف  
من شدة الإزهاق والارتباك، أعمصت عيني، مرّت أمامي عاصفة ناعمة  
بيضاء.

في سيارة أجرة أسوأ من سيارة نقل العفش فصل العائلة، يلطمهم  
الصدوق سريعاً. أمي وأبي وفتحي، تُرل أمي «أنس» بكرسيه بعيداً عن

يرمي الديك في صندوق الدراجة الحديدية وتصيح أمي ال 175  
قرشاً في حقاله صدرها، ثم تُحني ما بقيص (إن فاص 19) في كسوة  
العربة، تُحيطها غزوتين كعلامه، تسحبهم عندما تمرع الدنيا من العلوس  
ولا يصبح هناك طريق آخر.

أم الفراعيرج الثلاث فكان بيعها عليها أثقل، التعريط في بيضه كل يوم  
أو حتى يوماً بعد يوم لم يكن سهلاً، فذلك يضم ربحاً يومياً بسيطاً.  
لكنه دائم، خمسة قروش، سبعة، وأحياناً بريزة بحالها، فتشتري اللبس  
وتعمس فته رفاق أو أطاق أرز لبس أو صنية معروكه، ثم تذخر ما يقص  
من اللبس، تعليه وتصفه في طاحن فحار كبير تضع فيه الحينة القريش،  
نشاحر عليها عند المطور، فقد كانت أطعم من القشطة وألد من بصاعه  
الدكاكين، على حد مقولات التحسين التي كانت أمي تجيد إلقاءها أثناء  
الطعام.

بحوار قديمي أراها، علبه شيكولاته فارة أعرفها جيداً دون معرفة  
شيء عن محتواها، حاءتنا هكذا، علبه فارغة، كانت أمي تستعملها  
لتخزين مفكات ومسامير صلب تتساها لسنوات حتى يجيئ دورها،  
تدقها في الحيطان لتعليق الملابس، فلا مشاجب ولا شتماعات، على  
غطاء العلبه المستطيلة صورة، عروسة وعريس منمقبس، ملوبس، طال  
الصدأ شقة العريس الممدودة إلى عروسه، وتُقشّر جرة من قفاره، أفتح  
العلبة ولا أحد فيها سوى فردة جورب وحيدة مكورة.

قل أن أنامل ملامح العروسين، تقف السيّاره، وتهب رائحة ربل  
الغنم من جليد.

الكراسة، تتحلق أمام العفش المعتائر، يسرح أبي وتفكر أتي بجديته في كيفية قعادنا عند عمي لأجل غير مسمى، وكيف ستستوحيب شفته عشنا، يقف فتحي صامتاً، عمار الطريق أحفى شاربه الخفيف، وجدي طلة جلس على أقرب حجر صادقه، أما أحي أس فكان تأمله يلزمه بعض الوقت والخيال، ربما لثاته السي وجزئنا نحن دون توقف، لا أراه طقلاً صغيراً، فهو أحي الأكر على أية حال، رأسه في حقة لم تأت وحسده في زمن ولئى، توقفت ملاحه على ربع التسامة ثانة، عني صافيتين، صريحتين، فلا اضطرار يجمعه يضع حاحراً أين ما يحسّه بالفعل وما يجب رسمه على ملاحه، يحتفظ بأحاميته طارئة دائماً، تحص اللحظة امراد التعبير عنها، لا يشغل بادحار الإحساس لاستخدامه في تعبيرات لفظية قادمة.

لم أهتم بالحرج الذي تكلم عنه أبي مع أبي، نوال فقط كانت تشغلي بملسها الطيف والعطر الذي يوح بها شكل دائم، كذلك شفتها المُرْتَبَة، لها صالة وفيها أثر به، فوق رف مُرْتَبَة بقرأز تلمزيون مُلَوْن، الشقة لها ملكوة تكسوها ستارة بكر ايش وشك له سلك بمع دحول الباموس، الحيطان ليست مهدونة بالحجر، كانت مُر حرة بورق ملروق مُلَوْن.

لم أهتم أين سننام. فقد كنتُ نائماً بالفعل.

## 28

في النوم الأول لما عند عمي، راد ارتسك الكبير والصغير، تسعة أشخاص في غرفتين، لم يكن هناك مكان لعشنا، وكالعادة كانت التدابير من اختصاصات أمي، تُرْتَب متعلقاتنا في مدخل مُور صغير يطل على شقة الجيران، انحسرا جميعاً في أصغر أوصة، عرفة مهمة بحوار الحقام كانت تُستخدم قبل مجيئنا لتخزين الكراكيب، رصت أمي عشنا رأسيّاً في ركن واحد، ثم فرشت كدبماً بُنيّ أكله العث وتصرّفت فيه عوامل التعرية.

في الليلة الأولى، سهر أبي مع عمي حتى قل الصجر قليل، يتكلمون عن أحوال البلد ويقرّحون حلولاً لمشكلاته المرمية، يُشعل عمي المسجل على صوت المديح، بدو كان المصنفة، يحاول جدي طلبة التدخل في حوارهما بما تيسر.

تلتهم حكاياتهم أغلب ساعات الليل حتى تنأب عمي ووجب النوم، كان أبي يهرب من تلك اللحظة، وقت النوم، أين سننام؟ تكوّمنا جميعاً في غرفة مليئة بالكراكيب، عندما دخلت مع أبي كان فتحي بدم مطمئناً في ملكوت بعيد، وأني قلقة، نام على جنبه، تنوّد سئادة



كرسي أنس، بيها وبين فتحي مسافة تكفي أنا وأبي نتماء، تمادينا جدي  
 طلة الذي نكؤم بشكل عشوائي، الكرسي المتحرك حلف رأس أمي  
 ومن فوقه أنس عاف، نام أبي بحوار أمي وبعت أنا بحوار، رحت في  
 خدر سحب مي رؤية الأشياء واضحة، ولم يعطني بدلاً من ذلك خيط  
 الأحلام، لم أسحب تماماً ممن حولي، رأيت أصابع أمي تطمش بين  
 الحين والآخر على أنس، تلمس كفه الصغيرة فيكمل يومه بعد أن تدركه  
 الطمأنينة، ورأيت جدي طلبة يسعل حتى يوقظ من في الشقة جميعاً،  
 أصبحوا، يهرب الحلم وشدوا أناع ملامحه البائسة التي لا تتحرك، أمام  
 مرّة أخرى، لا أروح في النوم بشكل كامل، فقط أغمص عيني، وأرى  
 يد أبي الكبيرة تستقر على كتف أمي العاري، أستيقظ مرّة أخرى فيهرب  
 الحلم من جديد، وأرى أمي تلس حلايته بكّة بكّم، يُغيّبها النوم في دينا  
 غير الدنيا.

تسلّل أشعة الشمس من المورد الصغير، أفتح عيني فلا أجد أبي،  
 تستيقظ أمي ثم توقظ جميعاً، قصّة فتحي وجدي طلبة كانت الأشق  
 عليها، فومهم تقبل لدرجة أنني كنت أشفق عليهما. أحمل معها الكليم  
 الثقيل، كان طويلاً وسميكاً ينوء بحمله حملاً، نحرجه في الشمس قل أن  
 يستيقظ جدي طلبة، يترك عينيه ويهرش في قفاه، يثقل منه مسموحاً قل  
 أن يشق طريقه للحمام، يعود ولا أثر لراحة على ملامحه، روجة عمي في  
 الحمام، تضع أمي يدها العفّة على كتف جدي الهزيل:

«معلش يا أبا طلبة. استحمل شوّة».

لا يتكلم جدي، يجلس على الأرض، تفرح أمي باب لحمام وترد  
 روجة عمي بصوت يتصنّع الصبر:

«حاضر»

تخرج بعد قليل ملفوفة ببشكير كبير، شعرها باين ولا تضع على  
 رأسها طرحة مثل أمي، تعوح منها رائحة صابون ألوش العالمي، تلس في  
 قدمها ششب بفرو مثل نيللي ونجلاء فتحي كما تظهران في الأفلام،  
 تنف أمي ساهمة، ثم تتحرك في اتجاهات متضاربة عندها تزغر لها زوجة  
 عمي

«الحمام فضي يا عيشه. بس متخليش العيال ييروا الصابونة. أنا لسه  
 فاتحها»

تنظر إليها أمي دون أن ترد، تسحب جدي طلبة من يده وتدفعه برفق  
 إلى طريق الحمام:

«شد حيلك شويه يا با طلبة. وخلي بالك من الصابونة».

توقفت عينا بوال هي عيسى، فانفتحت بؤاسة حفيّة تحذب أعصاب  
متوترة في صدري ويضرب بعضها ببعض، كان ثبات نظرتها عليّ  
يركي، يشتت تركيزي ولا يخرج الكلام مكتملاً كنت أصلي الوقت  
بوقته ورغم ذلك أتأملها بعين كاشفة، أعزّيتها من كل ما شغل عليها،  
أتحيل مرونة حسنها وشكل ثديها، حجمهما وصلاتهما، تسري  
شعيرات من اللثة في مؤخرتي وقفاي، تنتعش سلسلة ظهري ويتخذ  
دراعي، لا أقوى على العودة لما كنت عليه قبل مجيئي إلى بيتها، ربطت  
لا إرادياً بينها وبين مفتتات شفتها، عندما تجلس على الكرسي الهزاز في  
اللكومة الصغيرة، أرى الكرسي يُحرك شيئاً في نفسي، وعندما يجلس  
عليه عمي يتحوّل إلى مجموعة عصبي من الخيزران فقط.

انشغلت بنوال أكثر من ذي قبل؛ خاصة قبل أن يطاردني النعاس،  
لم تعد هي الطفلة التي تشبه الأولاد، بدلت الضميرتين الصغيرتين  
بضميرة واحدة مرسلّة للخلف كذيل فرس، ملامحها أصبحت أكثر  
وضوحاً وضاربة، نظرتها أيضاً كانت دخانيّة ومعركة في سرحان مُبهم.  
أرى انتسامتها انفراجة للهموم، ثبات أسنانها وترتفع عمارتها فيشتعل

خيالي. لم تكن كلمة «حُب» المكوّنة من حرفين تصلح لما أحسّه تجاهه بوال، حاولتُ استخدامها هي سِرِّي ككلمة نفي بالعرض والسلام، سد حانة، فوجدتُ أن امجداني تجاهها كان ناعماً من أشياء معويّة، ليس لها اسم، أحب أن أبدو دائماً أمامها بطيفاً ومهدناً، أحرص على إزالته رائحة عرقِي بشكل مستمر، أحرص صابونة اليَوش على رقتي، أسقطها في عَنِي وأُمسِكُ بها تحت إبطي لنصحب رائحتي حُلوة، أفضُ أمامها باحداً عن تعبيرات رقيقة، تخرج مِنِّي كلمات غيئة ولا علاقة لها بما أودُّ قوله، يتعصر بدني وتشتد أوبار حفيّة وتقرّ بطي، يحمي السص وأرتك، أدير كلمات مُر تجلّة، أتحوّل أمامها إلى شخصين، واحد يحوم فوق البيوب الصغيرة والأشجار يعزل شعراً، وواحد مدعي مظافة وشاعرة تُربكه بضّة من طفلة، الطائر الحائم حطف في الهواء قُبلة من حد أبيض له عَواره، والآخر يقف خدشاً لا يُمكنُ إلا في عمقه الذي يمكن أن يأتي من شعله في أي وقت.

المرة الأولى التي صاحبها فيها كانت يومها الأول في المدرسة، كُتُ طفلين في السادسة برى الدنيا كنبورة مسحورة.

كان يومٌ دراسياً سحيقاً ومملاً، عدت للبيت مع بوال، كانت أمّها تحط حملتها من السوق، تركت شعلّة يظ منها سمك ساراياني، رائحة وفارته تملأ شفتها، أسرق بعصه وتحمله بوال معي، نصعه على كرسي حقام، أحلس أنا أمام النضّة وتجلس بوال بشكل متاهب للروغان، أهف عليه بالمقشّة وتنفخ هي في إصبعها مطاهرة بأنه ألسع، تتحول الققط

المشردة حولنا فتظفر بما فيه النصيب، تخرج أم بوال وترانا، تترك استهنا «تحري ورائي، تهرب بوال للبراح عندما تشعر بالحظر، تتركني أقاوم، حدي مطاردة زوجة عمي، يصيبني الخوس ولا أود، وشيتاً مشيتاً أتزل عن المقاومة، أصبح كمن رأى قطاراً وتأكد أنه سينتدع لا محالة، أضع فوق كرسي الحمام، أتخطّط في البياض كالكرة الجلد، فيتأثر السمك وتهيص الققط.

لم أقابل «بوال» بعد ذلك سوى مرةً واحدة، منذ ثلاث سنوات تركني أمي عند عمي نصف نهار لسبب لا أتذكره، قضيت الساعات مع بوال، حاولنا رشق يد المقشّة بين ريش مروحة السقف، وعرفت أمّها، وضريشتي وحدي.

بعد ذلك الحين، استقرّت صورة روجة عمي في دماغي على شكلها الشرير، ظل هذا المشهد في ذاكرتي لمدة طويلة، حتى أصبنا ضيوفاً على عمي وروحه كنتُ في الثانية عشرة وربما في الثالثة عشرة، لا أتذكر جداً، أفكر في بوال بشكل مختلف عن يوم السمك، ثلاث سنوات جعلتني أتجلبها في شكل أنثوي أكبر من سها، فقد كانت تلبس فساتين بكرايش وباطيل متوكّة وحزام، أناعها وهي تتكلّم وتصحك، أشعر بمتعة لا أعرف مسيها، أفشّش عن مصدرها، يتحدّر فكّي وأشعر بأساني تهتر في لثتها، وصرجات لبدّة تنقر مؤخرة دماغي، تحتاجني سحونة لا أعرف كيف أردها ويعمل مقص لذيدي في بطني، أسرح كثيراً، أحتاج إلى يوم طويل، تحمل عصلاتي وتكمش رعبتي التي لا أفهم كيف أعثر

عنها، كانت أحلامي بها تقاوم التفسير، حتى لعمري، أصبح حذر،  
أتعهد لمسها وتتعهد الابتعاد واللوم بالطر، كنت أعيد خلقها من حديد  
في عقلي الباطن، يراه ذلك الباطن المجهول أشئ كبيرة، لا أعرف مدى  
قدرتها على احتوائي، ولكنني كنت أعرف شيئاً واحداً جيداً، أنها تستطيع  
فعل ذلك الاحتواء بشكل ما أجهله.

أتعبد عن سवाल عندما يصل عمي محملاً بشظية كبيرة، نساغده في  
شيلها ويدخل، يفتحها أماما في صالة الشقة، لحوم مطهونة وعيش و  
قالب، أشياء كثيرة لا أعرف لها اسماً تبغ من وجبات المسافرين في  
المطار. وضعت روجة عمي أماما من الشظية ما تيسر، ثم شدت عليها  
قماعاً قماش وأدخلتها إلى غرفتها.

## 30

انكسرت سنتي الأمامية عند إزالة بيوتنا، لم أهتم بالأمر وقتها، تشهي  
في حه نوال جعلني أهتم، لم أفتح فمي بعد ذلك كثيراً، وإذا ضحك  
وضعت يدي على أسناني اصطفتني أمي إلى طيب المدرسة، حولني  
حطاب إلى المستشفى، كان طيناً مسماً بشكل دائم وكأنه استلم  
الابتسامه مع الوظيفة، لم يكشف عليّ ولكنه سألني.

«بتشتكي من إيه؟»

«سنتي»

«لازم تتخلع»

«وحتطلع سنة غيرها؟»

«الله أعلم!»

لم يكن أمام أمي إلا أن ترد:

«ونعم بالله».

بحرج دون حلعلها صامتين، غاصب أنا من فقدان نصف السنة وأمي  
تحمد الله على نصفها المرشوق في اللثة، تحرضني بأن أرضى بصيبي

في الصنف العتيقي، تحسبها دائماً بحكمة صنف الكوب الفارغ ومصفه الملائن، طريقة ترشيح للرصاص بالمقسوم وتشتجع بقاء الحال على ما هو عليه.

بعد أن فقدت سستي، أصبحت أفتح فمي للكلام والطعام فقط، أجاهد لتحجيم بسمي، أمتنع عن الصحك نهائياً. بعد أيام يشوّد صنف السمة فأذهب مع أمي لنفس الطبيب المتسهم، يعطيني حقنة في اللثة، تمنح صنف وجهي، يصح في حجم «الشيرلويج» الأبيض المتشح الذي أستلقي عليه، يمد كفاشة داخل فمي، يحرّجها بقية السمة التي فقدت مصفها الآخر على شاطئ الرشح وتاهت في ركاب الهدد، يتلصص لساني عند تحسس المكان الفارغ، يجد له وطيفة حديدية، يحرّج عدة مليمترا ب للأمام دون أن أنطق الشاء أو أعيط أحداً، نقل انشاماتي وتزيد بكشيتي، تصح ملاحي المقطبة هي شكلي الطبيعي، وأقول لعمري ونحن نقيم عند عمي:

من الممكن أن توفّر هذه السنة الناقصة طحين رعيّف بحاله في اليوم، فيوفر ذلك لأيّ ثلاثمائة وخمسة وستين رغيف في العام. حسية سخيفة. لا تحتفد كثيراً، عن حسنة الرجل الياباني الذي صنع ساعة تؤخّر ثنية كل مئة ألف عام، أو ابرحل الهدي الذي تنبأ بهاية العالم عام الأربعين وتسعمائة وتسع وتسعين في اليوم التاسع، من الشهر التاسع، تمام الساعة التاسعة و... أين سيكون هذان المجنونان في ذلك الوقت؟

تستقر ملاحي على وضع الكشيرة، أخطف بطره أمام مرآة تسريحه روجة عمي، أحاول التسمم، أحاف من انشاماتي، أحرب دائماً أن

أصحك، تتجاذب تجاعيدي ملاحي، تحد من انبساط روحي، يُزّر محيط فمي وتضيق عيني في دوامات جلدية قاتمة، أنحول إلى رجل عجوز، يرتدي وجهي الطولي ثوباً وقوراً، يحمي ملاحي الأصلية وكأني عورة، اقتضت هذه الأحاسيس تدعيمها بمررات تدو سخيفة وغير وجهية، أسي مثلاً، محلوفاً للوقار، أو أفصل الانطواء، وبدأت في هذه السن أفكر: «ماذا لو ركبت سنة صناعية؟».

## 31

أصبح كلُّ منّا يعرف ما يجب عليه شراءه، أبي يحمل يومئذٍ شحطة خبز صعب ما كان يشتريه، وحدي يقف في طابور الجمعية ليشتري كيلو لحم مُدغّم، وأنا ترسلني أمي لشراء الطلّات الخفيفة، كيس ملح أو حزمة معنّاع، وفتحني يرمي الزبالة قبل ذهابه إلى مدرسته.

وأصبح كلُّ منّا كذلك يعرف خاتمه قبل اليوم، حدي طلبة ينام بالعرض، حتى ولو كان أول من يدخل الأوضة. نتقرفص، ثم ننام في المكان نفسه.

طوال الوقت، لم يكن يشغلني إلا ما رأيته من أئنه و مظاهر ترف في شقه عمي الميسور، تعرّجت على التليفزيون الملوّن، رأيت المسلسلات وأفلام الأوسكار ونادي السيماء، للمرأة الأولى رأيت سات يتقصّص وهن يعلن عن منتجات الصابون والشامبو، ورأيت رجالاً يطيقين يمشطون شعورهم بالفازلين ادخرت من مصر وفي خمس مرات لأشتري هدايا الفازلين السحري، تعلمت الوقوف أمام المرأة وشيل مشط دائم في حبيبي، أهدم قصتي وأكوي ملاسّي والقّع حلّائي، باختصار، كنت هذه الأيام القليلة تمثل بالنسبة لي انقلاباً في كل شيء، بدءاً من جلوس روحة

عمي يس بقميص نوم مقوّر، مروّراً باستخدام بوال وحروها شكير ملفوف فقط حول ثلثه الأوسط، وانتهاءً بعشاء اللاشون والسطرمة والحصة الرومي، كانوا بعد العشاء يسهرون إما على أفلام السهرة أو على صوت المذياع الخارج من المسجل العجيب، والذي كان احتراق يستحق التأمل؛ يشعل الشريط الواحد ألف مرة، وفي كل مرة يُحرق الكلمات والأغاني نفسها، وبالترتيب نفسه.

رأيت في الحمام صيانة فيها صابونة فوّاحة، والمواسير عامرة بالعياء دائماً. أفتح فقط الحنفية أو أقف تحت الدش.

تعلمت في شقة عمي الميسور أيضاً أن الإنسان عندما يشتري حذاء لا بد أن يشتريه في علبة كرتون، والعلبة في شقطة، والشقطة مكتوب عليها اسم محل، وبها فاتورة فيها أرقام وحصولات، كانت أشياء حالية فواقعي كان يرفض عليّ أشياء أخرى لا تشبه ما تعيشه بوال في شقتها المهدمة البطيعة. لم تكن أمي تشتري لي حذاء بفاتورة، ولا بكرتونة، ولا شقطة، بل لم تكن تشتري لي حذاء أصلاً، فالأحذية كانت من اختصاص أبي، أمام نائع سريح فقير، يعاقل ويناهد، ويسب النائع ويلعن وكأنه لن يبيع، ولكنه في النهاية يبيع، ويأقل من السعر الموقوع، أحذية أغلبها مصنوع من بلاستيك أبيض، تُعرق قدمي في عر الشتاء، أم في الصيف فيكفي مشوار واحد ليحعلني مُفزعاً لكل من يقرب مني، وكأني أحر معي قطعة مينة أينما ذهبت. الأحذية العالية ملونة بالأزرق والأحمر ولها نطقة عريضة، وفي جنبها شريط لاصق وصفت

لأمي كثيراً هذه الأنواع الجميلة، رسمتها ذات مرة ولم تستوعب ما في حالتي، سحبتُ معي مطراوي صاحبي؛ لترى أمي حذاء الملون، هي اليوم نفسه أخذتُ أمي من فتحي قلماً أحمر وميني قلماً أزرق، سهرت ليلة بطولها مع كوناية شاي ثقيلة، تحطط لما انتوت، وعندما طلع الصبح وحدثت صورة مجسمة لحذاء صاحبي، مرسومة بدقة بالقلبين على حدثني الأبيض البلاستيك، الرباط الذي لم يكن موجوداً رسمته أمي، حتى الأبزيم بالثوكة من الجنب يبدو من بعيد وكأنه سيخرج من يقرب ويلمسه.

حذر السر حان الحفيف أو صالني في ليلتي الحامسة عند عمي، فتمت.

كنت أهرّب كثيرًا من شقّة عمي لسبب أحبه، أقضي معظم اليوم  
 بالحارج، احترعت حُجّة لأمي وصدّقتها  
 «حب أصلي في المسجد».

داوية قرية لا تريد على حجم عُرْفَة، أقضي فيها ما بين الظهر والعصر  
 بعد حروحي من المدرسة، أصلي الفروض وأستمع لدروس الوعظ،  
 لا يعد ذلك عتي ما شكّله عقلي الباطن بخصوص سवाल، ولذلك كان  
 يجب عليّ أن أخترع شيئًا جديدًا!

الظهر سؤد قل دحولي للزاوية، ورملائي المتأخرون عن لصلاة  
 يحتاجون إمامًا، يدعوني للأمام فأندفع، يتأخر عتي رميلي نصف شهر،  
 وقبل انتهاء الركعة الأولى يسحبه شخص آخر ويقفان خلفي على بُعد  
 متر، بعد انتهاء الركعة الرابعة أنظر خلفي فيملأني الرعب، صعب يقف  
 فيهم أكثر من عشرين رجلًا وأنا إمامهم، كان يهربي أن أكون إمامًا لتناس  
 أكبر من أبي، اتخذ المسجد في خيالي معنى القيادة، نمّيت أن أكون  
 شيخًا يعطي دروس الوعظ، والمسألة لا تحتاج مجهودًا كبيرًا، طلاقة



لسان مع ملبس يديق يُدعّمه حِصْط ثلاثة كتب عن ظهر قلب. فكُرتُ بعد ذلك في ترك الدراسة.

### 33

وقت العشاء، جلس أبي في ركنٍ مَرٍو بعيدًا عن الطعام، ثم اقترب فبِلاء أخذ يدحرج بيضة مقليّة في الطبق، ثم أراحه بعيدًا، أكلنا جميعًا كمن بلوك زلْطًا، إلّا جدي طلبه، كان يأكل كمن في بيته، تنهرني أمي:

«كُلْ بأدب. مش شايف أخوك».

وانظر لأخي، لم يكن يأكل بأدب، بل لم يكن يأكل أصلًا. وروحة عمّي عانة عن دائرة الطبّيّة، عملت أمّي الشاي، وقبل أن نعرّغ الأكواب تدخل زوجة عمي:

«لقيت لكم أوضه»

تقول قل أن تجلس، يضع أبي كوباية الشاي قبل أن تمرّ، يصمت للكلام بشغف، وتُكجّل زوجة عمّي:

«ومش بعيدة».

ويسأل أبي:

«كم؟»

بعد عودتي من المدرسة، كنتُ أشق طريقتي بين شحرتين صغيرتين بينهما بوابة حديدية مُعلّقة فيها قُلل سبيل، أنتخطي المعبر، ألمس حديج الشجرة مرتين، أشعر براحة لا أعرف سببها، أترك على باب المعبر ذنوب اليوم كُنه، هكذا كنتُ أهيّن نفسي، في اليوم التالي أفعل الشيء نفسه، بهذه الطريقة لا يمكث أكر الذنوب إلّا لساعات فقط، بعد اختياري للممر كنتُ أرى السماء صافية، أكثر سماحة وبيعة، زُرقتها مبهجة، ويمكن لفتتها هضم كل السيدات بعد تحطّي ممر التوبه كنتُ أرى في بطرات الناس سلامًا وتُسْمًا، وأرى أن الله الذي يحوفونا منه حلیم وطيب، ساكن فوق السماء برده لني وعاء مشعولة من سحب أبيض، بعد ذلك، أصبححتُ أستدعيه كثيرًا في أحلامي لكي يلوّثها.

تُعلّق زوجة عمّي طرحتها وتبقى بشال قصير فوق رأسها:  
«بتسعة جنيه في الشهر».

يُنزّل جذّي طلبة كويه بعد أن تسحب الثقل على حوافه:  
«بحالهم؟».

تزرع زوجة عمّي لحدّي وتصرف. يقصد أبي الكبة الجالس عليها  
عمّي، يسأله:

«إيه رأيك يا ابو نوال؟».

ويرد عمّي:

«مش بطالة».

تظهر زوجة عمّي في المشهد من جديد، تُشير إلى عمّي فيترك  
المجلس ويختفي معها للدقائق، ثم يعود ويقترح:

«على فكرة الأوصه نُقطة مساهمها بحري وفي الدور الثالث. نبص  
على جامع وطابونة. أنا رأيي اتكل على الله».

وتقول أمّي:

«هتتكل يا اخويا. هتتكل كُلّنا إن شاء الله. خير».

يُصلح فتحي شيشبه بإبرة كبيرة معقوفة ويقول:

«مش نبص عليها الأوّل».

كلّهم اشعلوا، لأوصه، وما شعلي أنا آنا مشترك الشقة لتي تسكنها  
نوال، لا بعسي عمي ولا روحته، انتقالا يهدد كل الحطط التي دُترتها،  
آلاف الأشياء، الصعيرة كانت تنصارب في خيالي، لا أعرف ماذا تعني  
«نوال» بالنسبة لي، وماذا يعني ابتعادي عنها ولو لمسافة شارع واحد؟

أعدتّ تدوير الحوار في رأسي مرة أخرى، هل قالت زوجة عمّي  
«لقيت لكم أوضة؟» لكي تساعدنا أم لكي نحلّ عنهم؟

تركهم يتفاوضون ويحسبون الحسابات، وخرجت.. كانت الشمس  
تعمل للمغرب تلون الشارع الصغير بضفّة قاضية، قادتني قدماي إلى  
المسجد، راويتي الصعيرة، لكم اشتقت أذ أصبح إماماً الآن، جمعت  
نُفسي ودخلت، لم أجد في المسجد أحداً؛ فمعباد صلاة العصر فات،  
والمغرب لم يؤذن بعد.

فوق الكلم بما في عرفة الكراكيب، ولكن ليس ككل الليالي، أمي  
مستيمطة تكلم أبي، وفتحي يحاول إثبات أنه كبير بمكن أخذ رايه، قلت  
أمي:

«لما شكلهم زهقوا منا».

«حقهم برضه يا عيشه. مغيث أنقل من بني آدم».

ردّ وهو يضع ذراعه على عينيه كمن يستعد جدياً للنوم.

«طيب والعمل يا أحويا؟».

سألت، فرفع أبي ذراعه من على عينيه وثني جذعه استعداداً للقعود،  
اعتدل على الكلم وبدأ يشرح لأمي:

«أنا قدّمت على سكن انتفالي من كام يوم سلّمت لهم صورة العطاقة  
وجواب من الشعل. يقولوا فيه ناس كان حالهم ري حال، قعدوا شوّة  
في الدويقة.. ويعلمين استلموا شقق حلوة أوي».

ويسأل فتحي:

«ودي فين الدويقة دي؟».

ويجيبه جدي الذي استعصى عليه النوم:

«في آخر بلاد المسلمين».

تقول أمي، والنعاس ياد على ملامحها:

«يعني مش هناخد الأوضة؟»

ويجيب:

«الفسر شوية».

وبصبر لأيام طويلة، كان الشيء الوحيد الجميل في هذه الهدية هو بقائي بجوار نوال، كنتُ أستمع عندما تحكي لي الأحلام أو تعطيني شوية لب مع مرور الوقت، أصبحت المسافة بيننا تسمح بلعب الكوتشبية، أدخل الحمام مع طيها واستكشف تفاصيل جسدي عن طريق الحبال، وكنت المرة الأولى التي نحتاج كياي شمي، سخونة وصهد، ثم يحرص مني سائل غامض، ممتع، لا أفهمه.

## 35

في يوم إقامتنا الأخير عند عمي جاء أبي من شُعلته مبسوطاً، يكاد يرقص من فرط السعادة، رفع ورقه في وجه أمي، كاث مجلس وأمامها طيب غسيل، بثقت يدها في هدومها وأمسكت الورقة، قلنتها من كل الاتجاهات، لم يستطع أبي الانتظار حتى يثخن المفاجأة، قال وهو يحاول السيطرة على ابتسامته:

«عقد إيواء».

ترد عليه وتخبط صدرها بكفها المبلول:

«إيواء! هو أحتا شحاتين يا راجل؟».

يفضحك حتى تبان أسنانه قبل أن يقول:

«يا وليته شحاتين إيه؟ إيواء يعني سكن مؤقت يا عيشه، لغاية لقا الحكومة تدبر لنا شقة».

تسدو على ملامحها معالم من تعثر عليه المهم، تركز النظر على وجه أبي وتقول:

«يعني حمشي من هنا؟».

«حنمشي طبعاً يا عيشه».

«ودا حلو يا اخويا الإيواء ده؟».

«العقد مكتوب فيه كشك، بس لما سألت قالوا إنه كبير أوي. وييجي أد أوضتين، لئي الحاجة على ما أجيب عريّة».

دون تفكير طويل عادت أمي للطست الذي كانت بطوقه بساقها، عصرت ماكد فيه من عسيل ووصعته في دلو أمامها، وبهجة من سحّلد في الحجة رفعت حاحيها وتألّقت السفف، رنت على كتب روجه عمي برقة وقالت:

«والبي تشري دول يا أم نوال. عشان أنا هلم الحاجة».

ودون انتظار رد حوّلت أمي حلالية قديمة إلى بقعة، ربطت كمبها ودست فيها كل ما تستطيع من ملابس وبعض نعال.

تبدد غفشنا بسبب النقل وسوء التخزين، خشب الدولاب ومُلة السريبر شققته الرطوبة وبخره السوس، والمراتب تكوّم قطنها في ركن واحد، والخصر تكسّرت عيدانها، وضاعت غطيان الحلل.

تمسّك بنا عتي كثيرا:

«حتقطعوا فينا يا شيخ. والله الواحد اتعود على وجودكم».

قال لأسي وهو ينقل ما يستطيع، يصعه على عربة كارو كبيرة يقف بجوارها نعل، تكوّم فتح ملابسنا ونعال، وبعض أكواب، كهزم مدرج وضعنا المنقولات. في الصالة سألتُ أمي:

«طيب والهدوم اللي لمتة منشفتش. حنسيها؟».

لم ترد، نظرت إليّ نظرة تُعتر عن أحاسيس كثيرة متصاردة. ثم قالت:

«دي مش هلو منا يا حبيبي».

ترك أنمي العسل، تفرّص فوق عربة كارو ونموح منها رائحة بصل. أجلس بجوار العريجي، يعلّق العريش على حسي العل، أمامي دبل طويل يغطي مؤخرته، ظهره مسسط وأدناه تنحرج كان بطل أكبر بهنر عمي لأرض صغرة الشمس بالكاد تلوّن الأرض، يقف البقل في مكان مشمس وتعتري قوائمه، يتول، أتذكّر رائحة المصرب الذي عشت على شطّه ثمانى سنوات وتركته منذ شهرين بحشة غليظة صر به العريجي فرمح، كدنا تنقلب فور دوران العجلات.

خرجت من عربة العقاد، تركت الملموسة الابتدائية، سألتحق بأخرى إعدادية، وتبدأ رحلة جديدة في البحث عن أصدقاء جدد ياسبون المرحلة. العربة الكارو تشق طريقها، تتجه حيث لا أعرف.

جلس جدي طلة بين النجج، وقبل أن تنحرك العربة نام، حسنت أمي بجواره، وفي حجرها ترقد قطه أس، وأس جالس بين كملك متوّح، رشقت أمي كرسية في منتصف العربة، ولّت وجهه في اتجاه الطريق، أما فتحي فكان يحمل شنطة كتب على حجره، وأبي شارّد وتانه، ربما يفكر في أمر واحد، أين تقع هذه المنطقة التي هو دهب إليها بعياله؟ المسألة، وجه سؤاله للعريجي الذي كان يسحب نفس دحان شرهة من سيجارة:

«أنت عارف الطريق يا رئيس؟».

«بعون الله»

بركة صغيرة يندقيته. بعد دقائق، جاءت فرقة مشاة إسرائيلية وعسكرت بالقرب منه، اتخذت من شاطئ النركة مستقراً، كان رأس أبي هو كل كيانه، لا يشعر إلا به، تحول كله إلى رأس حي يحمل جسداً شبه ميت، أصبح أمامه أحياء وان أحلاهما مراً، اختار أن يحملانه بسرعة الضوء ليعود للذبات المعيدة، فإب أن يعرف بسلامة الذي أصبح قطعة حديد صدى، وإما أن يخبر إليهم وتجعله طلقاتهم كما المصفاة. امتنع عن التنفس من المم، لا تظهر منه إلا فحت أنف يشم بهما الحياة التي كان ومحبته تحست وبرمها ينال عن اللعنان في كل دقيقة تمر، ظل كما هو حتى فرب أن يوش فيصح ماء يسير مع الماء، ليلة كاملة ونصف نهار وهو على هذه الحال، من فرقة المشاة من الجلوس على شاطئ النركة، فقررت الرحيل، حرج أبي تنمض من الرد، يتحسس حسده ولا يصدق أنه لا يزال حياً.

لم يعمل من حكي هذه الواقعة لي، ولكني مللت سماعها.

أبي لا يزال سائداً طرف دقه على الروراء، والعرجي يصرب البعل فتجوز فوائمه ويرمح، تتأرجح العرة وتمين، تمسك أبي طرف البقعة الكسرة بيد، ويدها الأخرى تسد كرمسي أنس، لمتحرك، قطه أنس في حجرها نائمة، وأني يحض بروازه العسكري، وحدي طلبة يعو ويستيقظ في الذيفة الواحدة أكثر من مرة، أمسكه من قبة جلانه لكي لا يسقط من فوق العفش ملابس أبي معترة وشعره مشوش، بطرته نائمة وملاحه عصبة على العهم، وأمي تلبس جلالية «بيكة» فيها من البقع

رد الرجل وهو على حاله الجهم. كانت الأرض تتحرك ببطء من تحت العرة، والبعجلات تطلع فوق رط ومطاط وقمامة، أخذ أبي على حجره مرو زافيه صورته، صورة ظلت معلقة في صالة البيت القديم منذ إنشائه، ترحب أنسامته بالرائين، يقف مشدود الصدر، باهى بالبدلة العبري، ويضع إبهامه في طرف القديش، والبريه معوح على ناحية، وأسمه اسم من خرف وجواره بياناته - حندي محتد بطل.. ثم تاريخ التصوير.. 1974.

كان أبي ضمن العرة السادسة والعشرين مشاة ميكابكا في حرب أكتوبر، حوصر في ثرة «الدفوسوار»، قال إبه هو الذي أرشد عن مكان إربل شارون أيام أن كان جنراً، رآه قبل أن يهرب في اللحظة الأخيرة، عن طريق فرقة كوماندور إسرائيلية مجهرة هضت من السماء، احتفظته كصفر وصادت، حكى لي عن صعوبة أيام الحرب، كيف أكل قشر برتقال لم يربل يحتفظ لعباب جود إسرائيل، في أحد مساءات أيام الحرب علق سدقته الرومية في وقته وطار، ركض حيث لا يعرف إلى أين. أخذ يتعد عن صوت طائرة، كانت تطن فوقه بأمتار قليلة، يستقر قرب دشمة لا يعرف لأي فريق تنبع، يسمح صوتاً مدوياً خله، تسقط دابة كبيرة بجواره ولا تنفجر، يواصل أبي الركض. يجري حتى يرى ماء، طه سرانها في بادئ الأمر، تأكد من أنه ليس إلا ماء حقيقياً عندما قهر في

والغبار أكثر مما فيها من ألوان، تُقَطَّرُ رأسها بإشارات قصيرة وتوازن على كتفيها طريحة سوداء، تلس حذاءً أسود بلاستيك، وأثر العرق والتراب صمغ حطاً رمادياً عند كاحلها، يجلس فتحي شارداً، تنادي رجله من كوتشي متهتك الأجناب معقود الرباط بشكل دائم، ولونه الذي كان أبيض أصبح بلون الأرض أماً جدياً طلبه فأراحني من تأمله ونام مرة أخرى.

## 36

تتوقف العربية بعد مشوار قصير، يقول صاحب البغل:

«حمد الله السلامة يا جماعة».

جُملة العريجي تعني أننا وصلنا بالفعل، ولكن أين الأكشاك؟

أمامنا مطلع، وبعده مساحة منخفضة كثيراً، تتساوى أقدامنا مع سطح الدور الثالث إذا ما قارناها بالمنحدر. أقترُبُ قليلاً، أرى في آخر المطلع حفرة واسعة، كركبة صغيرة على وشك أن تحف، فيها مائة راكدة بعمق ذراع. أقترُبُ أكثر، الملح معجمه من أكشاك متسوية قائمة في منزلق، مرصوفة على جانبي الحفرة، كدودة كبيرة قائمة، أربعة صفوف في كل صف عشرة مخدئين، يسميها السكّان أكشاكاً، على كل كشك رقم واضح ومكتوب ببوية حمراء.

الإبراء مصنوع بالكامل من الصاج المعزج، وسقفه قديم تنخره الرطوبة ويعتبه الصدا، وأمام كل إيواء باب متهاك لا يطابق الحق، معمول من خشب وصفيح، ومرتين بأطباق ألومنيوم صغيرة مدقوقة برشام، وأمام الباب أحجار معدوغة ويقب طوار مهشم، الأكشاك مرصوفة بشكل شبه دائري، يُسجج الركبة الصغيرة العطية الأكشاك

تسدل على أبوابها ستائر لا تستر شيئاً. وعبال صغار يتقافزون في البركة، بعضهم بالملاس الداخلية، والعص الأخر عرايا، يلقون حول الماء الراكد، ويطاردون كلباً

أرى امرأة من السكان الجدد الذين سقوا للسكن الجديد، مدينة، ثقيله العجيبة، تمسك في يدها سكيناً، وفي الأخرى ديكاً، تجز رقبته بعنف، تفصلها عن حسده المرتعش وريشه الملون، يحرج من عنده خرطوم صغير يرش الدم، يتحط الديك في دمه قرب البركة. أبتعد بما أحمل عن المرأة وديكها. يستريح جدي طلبة فوق أقرب حجر، يقرص ويفتح ساقيه كمن يستعد للنزل، يفهر فجأة من مكانه، يقطع سر حابه عندما يرى كلباً عجوزاً مقطوع الذيل متوف الشعر ينح بالقرب منه.

أحرج قدمي من الإجهاد، أكس بعدائي الشارع، شعرت للحظة، أني ميب، وأن من يحمل العفش إلى داخل كشك الإيواء شخصاً آخر لا أعرفه، ثم شعرت بأنني متحدر أحجم بالنعاس، أجاهد لكي أخرج من حالة نوم قصيرة.

يُصرح أبي العقد من حبه، يتأكد من الرقم (13). تتوقف العربة، يشعل العرجي سيجارة جديدة ويتنظر، نزل جميعاً ونزل عفشنا، يبحث كل منا عن شيء يحمله.

يعترب أبي من الكشك، يحرج المفتاح الذي استلمه من المحافظة، يفتح القفل من تلقاء نفسه بمجرد لمس، يتوارب الباب الصاج، ندخل لتفقد مسكننا الجديد، نقف في منتصف الكشك، تهب رائحة عطانة،

ودوامات غبار تلف المساحة الصغيرة، أمات الإدارة نصفها مخلوع، وبضعها محروق، تتدلى الأسلاك بأطراف مقشرة حطرة، ويلاط الأرضية مواته كالتراب، يرقص تحت أقدامنا، الكشك مدهون بجير أزرق، يختم المون كل من يقترب

في الكشك نافذة واحدة لا يزيد طولها على شبر وعرضها ثلاثة، سلحة مستطيلة، تسمح بدخول ضوء في حالة احتضار دائم، معلق على المنحة سلك ناموس متهك، وعلى تقويه نسيج عنكبوت مقتر، فوق حوافه تتجول حشرات مشكلة. الشيك منفذ إضاءة وحيد لا يضئ، بعض كسور في روابي السقف ندح، نوراً شحيحاً عند علق الباب الصاج الشك الوحيد يطل على أرض منداة مدروحة دثمة، نسخ نقايا نول ينثي من الكشك المجاور، وأرى الحار الجديد، رجلاً عجوزاً ونحفاً، بخلص من قطراته المحبوسة بين كشكه وكشكه، تلتفت العجور قبل أن يعملها، وأسأل نفسي هل يشك الرجل بأن شخصاً ما على الأقل لا بد سيرا؟

حلب الأكشاك تقع مزرعة كبيرة، حولها سور من سلك شائك، وعلى حوافها مداخن رؤوسها مشتعلة دائماً، ودخانها أسود. خلف كشكنا هضبة مدورة محدودة، أمامها بوابة كبيرة خضراء، فيها تنتصب شواهد مقابر قليلة، من حولها أشجار قصيرة وعشب جاف. وبين الأكشاك فتحات في حدود شبر لدخول وخروج القثان.

الأكشاك توسطها قبة مسجد صغيرة بالكاد تُرى، حولها عمدان نور صندنة لا تنيرو، ونجيلة تستيح البركة التي يرعى فيها سوط وأوز وعمات



قبيلة لا يتابعها أحد يظهر على بُعد قبيل من البركة درج حجري كأنه نقايا مدينة زائلة أو حطام حضارة فتتها اليهود. أرى عيالاً يعيشون في ماء أحصر ثقيل، يقدفون البط بالحصى، يُرهبون العم بتقليد المأمة وطلوع اللسان

أرفع الفجة الأكبر، يشيل أبي صرة تليها حجماً، ويرفع حذّي فوق رأسه حذّه كبيرة، فيها حلل صغيرة وأكواب، و يحمل فتحي حصراً مبرومة مدسوسة في بعضها.

بدا على أبي الضيق بشكل معاجي، وبدا على حدي طلة الإرهق فمارس دور الكبير، أخذ يشير إلى بعض المنقولات:

«هات دي هنا. حظ دي هناك».

تسمع له أمي، تقول «حاضر»، ولكنها تصع ما تريد في أي مكان تريد، يتابع رصّ العفش، بعد أن يرى الأشياء توضع في مكان معاكس لما اقترح، يقول بثيرة المتصرين:

«مانا كنت هقول كده برضه».

أسمعهم يتكلمون، تنكسر أصواتهم، قل أن تصل إلي، أشعر بأنني لستُ هنا لأستقر، ولكن لأكمل ما بدأه أبي في حياته من شقاء، أعيد الكرة من أول وجديد، ولكن في زمن مختلف.

بعد نقل عشمنا يوم كانت عائلة أخرى تنقل عشمها، تهذم بيتهم في عرب المحمدي من تلقاء نفسه وليس فعل فاعل كما هو الحال عندما،

الكشك رقم 12 المجاور لاء، استلم مفتاحه موظف يبدو في حاله، عرفت أن اسمه الأستاذ عبد الشافي سعيد، رحل قليل الكلام، أقام في الكشك مع زوجته، وله ابنة وحيدة عرفت أن اسمها سعاد، كانت تنقل العفش بعرم قوي، تنحي فوق المربية وترفعها على مرة واحدة، يساعدها طولها المتناسق وعرضها المعقول.

أضاف لنا الكشك وجود كهرباء، وأحد متاشيشا أهم، دورة المياه، الأربعون كشكاً لهم دورة مياه حمامية، تبعد عن الكشك مائتي متر تقريباً. أخمّن زفتي وأذهب مقدماً كتصوّف وقافي، ربما أجد شيئاً أفرعه من معدتي، أحياناً أشعر بحاجة وهمية، تتلاشى الانفاصات عندما أصل للناس. جدي طلة يعاني من بُعد دورة المياه، لا يفعل شيئاً طوال اليوم سوى الذهاب والمجيء سن الكشك ودورة المياه، أصبحت ملامحه معروفة لأغلب سكّان الأكشاك.

علّق أبي الكلوب أبو رتيبة في مسمار، لم نعد نستخدمه إلا عند إعطاع التبرار الكهربائي، اشترينا ثلاثة إيديال لتلقيط، رشّت أمي مدحل الكشك بالملح والحنة السوداء يوم «مستلامها»، حرص أبي على احتصار الوقت الذي سنكشف فيه كرتونة الثلاثة وهي داخلة للكشك، أصبحت أملاً لكل الزجاجات من دورة المياه البعيدة مرتين على الأقل كل يوم، وأحياناً ثلاث. وأمّي لم تعد تصطر إلى سلق اللحم ووضعها في الدهن، أصبح كل ما عليها أن ترفع الأطباق والحلل وتضعها كما هي على الأرفف الإستائلس، والبيض لم يعد في حاجة لدقه في صفيحة البقيق

أو دهنه في عادت القش، تحوّل التحريم إلى حاجة مُلجّة، تصاعفت المشاحرات اليومية بين أمي وأبي بسبب مصروف البيت، أصبح يترك الكشك كثيرًا ولا يعود إلّا في وقت متأخر.

يحرص أبي على اصطحابي لأصليّ مع الجمعة في ساحة أزجالية صغيرة بين الأكشاك، يعتلي الخطيب منبره وينام أبي، أنشغل أنا في هش الدساق عن وجهي وأصابع قدمي، يندمخ الخطيب في التحذير والذير. وأتأخ أنا المنظر بالخارج، نطل المسجد على الركة الصغيرة، يلعب حولها العيال الكفرة الذين لا يُصلّون الجمعة، أتابعهم من شباك حديد بجوار المصاغة وهم متشعلون بأشياء لديهم مسلبة، مسحرون من الماء سمكًا نططًا صغيرًا سبائير عمولة، من حوص جريد ودوارة، يستحرون طعمًا من تل طعي قريب من المقار، يلقون في الماء بعثران مينة وأفاص جريد وفرد شياشب هالكة.

مخرج من المسجد الصغير مسرعين، يتدافع الناس عند الحروح من الباب وهم من دخوله كسالي.

أتركه يد أبي وأجري، أذهب إلى العيال الذين يلعبون، ألمح أبي يُدور مسيحة بين أصابعه وينادي عليّ..

## 37

كان الكشك الواحد في حدود خمسة عشر مترًا مربعًا، مستطيل كتفعة دوميثو، من المفترض أن تستوعب هذه المساحة خمسة أنفاس على الأقل، وتستوعب أيضًا بوتاجاز، ثلاثة، مروحة، سريرين، كنب، برايزة، كنب، حلال، أكوابًا، شهيقة، زفيرًا، شهيقة، زفيرًا..

في بيتنا القديم المسي أي كلام كان جدي طلبة يجلس في أي مكان شاء، فالأرض أرض حكمة، والحكومة أرضها واسعة، وعد عمي الميسور كان ينام قريبًا مني للدرجة تُمكنني من عد أنفاسه، أما في السكن الانتقالي فقد تحدد كل شيء، وبتنا حياتنا الجديدة.

مد وصولنا، نظمت أمي المكان بقدر كبير من الحكمة، وصعت في المدخل كبة واحدة وبعض الكراكيب بسبب صيق المكان أصبح لجدي طلبة مكان واحد بعد أن فرش له أمي مرتبة، يقل طولها عن مترين ولا يزيد عرضها على متر، وضعتها تحت سرير.

طل حدي ينام تحت سريري ليل طويلة، كنت أحيانًا أرفع الملاء وأجلس معه في صدوفه الصغير، رائحة محل إقامته كانت مميزة، لا هي منكرة وكريهة ولا هي معطرة وذكية، تركم مكونات مختلطة، نخب طعام،

بقايا عرق وبول، دحان معطر متداخل مع رائحة خشبية معيرة. نام حدي على الكسة لسنوات طويلة، كان يقع أحياناً ويرطم وجهه بالأرض. فصل بعد ذلك أن ينام في الراح بجوار السرير، يكبح طوال الليل؛ لذلك اخترعت له أُمِّي هذه المِمامة التي أراحت أكثر من رقدته في الليل، أتأكد أنه راح في النوم، عندها تنظم أنفاسه.

يدخل جدي لُقمِقه فقط عند النوم، تزيد المدة التي يجلس فيها وحينئذٍ حتى أصبح وجوده تحت السرير هو القاعدة، أحياناً يصادف نرولي من على السرير حروحه من تحت، بصطلم بي فيسبي ويلعبي، أصالحه بسيجارة كليونانتر أو قطعة هريسة لا تحتاج لما يفده من أساس وصوص.

تلاحق أنفاسه، فكأن يتحرك طعام وبيعر طعام، يده ترتعش دائماً، يزداد رقصها مع مرور الزمن. أصبحنا ننسى جدي طلبة تحت السرير، تمر لحظات أتخيل فيها أنه مات، وأن منامته تحت سريري قد يتحقق في صورة مرنة من قفل أسود، الملاءة التي تححه عن الرائزين تعلو عن الأرض نصف شرس، شريحة خطية صغيرة من النور، ثمكّه من الفُرجة على التلغريون ورؤية الأقدام الثامنة في الصدد والشاشيب، أصبحت لأحدية بديلة عن الملامح، يُفترق جدي بين كل من في الكشك عن طريق أقدامهم، حتى السبوب والإصابات التي لم يكس صاحب القدم الواقعة يهر بها في قدمه. كان جدي طلبة يحفظها ويُعلم بها أصحابها.

في اليوم الواحد أذهب مرتين أو ثلاثاً إلى دورة المياه الجماعية، لم تستوعب الأكشاك مواسير للمياه ولا شبكة للمحاري، فوق أسقفها نصف الدائرية أسلاك عشوائية لتيار كهربائي يفصل أكثر مما يعمل، دورة المياه مشتركة، ست غرف، يفصلها قطوع مرشوف فيه ست حفيات، من تحتها حوض كبير تملؤه المياه ويقفز فيه الغيال، يخدم العبي العبد أربعين كشكاً، يسكنها أكثر من ثلاثمائة نفس، غرف دورة المياه الجماعية صيقة، أغلب بلاطها محلوخ، في كل غرفة حانية فتحة تعلو شراً عن مستوى الأرض تكفي دحول يد، محشور فيها دائم لعافه من ورق الجرائد

بدأت أيام الصيف وبدأت معها معاناتنا، تكاد أن تُشذو جلودنا تحت سقف يحس كصاجة العرن، يتفوق في امتصاص الحرارة وتسريها إلينا، هواء المروحة ساحق، اللباب ساكن ومستسلم للموت البطي، أقطع المسافة بين دورة المياه الجماعية والكشك، أزل ملاسسي الداخلية تحت الحفية، أخرج، فيعود العرق من جديد، بعد طائور طويل من الانتظار والموطاة فوق كعبي والصبونة ناشت بين أصابعي، بعد صر طوبل نجف المياه هور حروحي مباشرة، تحت رداد القطرات أنتعش، أستسلم، يأخذني الحذر حيث لا أرى إلا أم أنماه، الناس من حولي يركون أجسادهم المستعينة من الحر لتستمتع، يهرجون رعم النؤس وهم يدملنون بمقاطع مختلفة ومتنوعة من أغاني الموضة:

«في السكة شفت اثنين.. سلامات يا حبيينا يا بلديات.. توهان عالم  
مليان دخان»

نقابلني المسلة العرونية المشهورة وأنا حارح، واقعة، شامحة،  
مهمة على نحو ما نقوشها ورسوماتها العربية، أمرٌ عليها وأنا أنجب  
صانعيها وأسأل:

هل حقاً كان المصريون القدماء عظماء؟

هل حقاً نحن أبناؤهم؟

## 38

سعاد تملأ الجراكن ورجاجات المياه من دورة المياه المجتمعة،  
أذهب معها في اليوم مرتين، أفرع مثاني وأملأ الرجاجات، أنتظر  
بالبحر حتى يقضى من نلداحل حاحانهم، ثم أنتظر خروج سعاد  
وأعود معها للأكشاك

استجبت العلاقة من سعاد وأمي، وصت إلى مادل أطلاق لطيفخ  
وقطع الزهر الشحيح. كئ كلما رأيتها أفكر في شيء واحد، ستي التي  
فقدتها، تسيبت في تكشيري المستمرة؟ خصوصاً عند الغضب، العاهة  
أول ما يعري نظر الآخرين لا بد سأحتاج للاستسام في مراحل كثيرة  
قدمة يبدأ العد التصاعدي لإحساس الرجولة، شهشي رعية عامصة في  
التجاوب مع العيون الدعة التي تحتاج للتشم وهي تُطرق للأرض.  
في هذه الأثناء تُقدّم لي «سعاد» هدية في عيد ميلادي، نموذج مُصغّر  
لمصحف به لعبة مضبوطة زرقاء.

كانت سعاد في السابعة عشرة، وأنا في طريقي لتجاور لثانية عشرة،  
العرق سن خمس سنوات لصالحها، قالت دت مرّه إنها فقط أربع  
سنوات، الحسم في هذا الأمر يحتاج إلى ربط تواريخ أعياد ميلاد تنواريح

إحراج عنصر عامص يسكنني، وكأنه الحس، أجاهد ليخرج، أصحو  
من نومي على صوت أمي، تنظر إليّ وشفتيها معلقة ابتسامة، مطمئنة  
وحانية، نسألي عندما أحاول أن أحفي الليل الذي يقع سطوبي في بظرة  
حاطقة وسريعة:

«كان معاك حد في الحلم؟».

يراقب أبي كلماتها، يقول:

«غير ريقك الأول قبل ما تشرب ميه».

رواح أو عزاء أو كسر ساق أحد الأقارب، ربما يحسم بقتره ولاية جديدة  
للرئيس الأمريكي، فرق مسة ليس هو الموضوع، ولكن الموضوع شيء  
أهم من ذلك.

عرفت عن طريقها متعة جديدة، رؤية ملامح محددة في أحلامي،  
قبل ذلك كنت أرى الأحلام باهتة، لا أشي معينة تأخذ بيدي وتعييني  
على حوص معامرات الخيال المثيرة، أشتفي من أشياء دون العوص في  
أي تفاصيل. بعد أن رأيت معاد وتمكنت من تحديد ملامحها أصبحت  
الأحلام أكثر وضوحاً ولذة، أرسم طبعها على المحفة الطويلة، أراها  
منقوشة على المرتبة كلها بالبحجم الطبيعي.

أصبح رأسي محشواً بأفكار مشوشة عن علاقة الذكر بالأنثى، أي  
ذكر، وأي أنثى، مناهة تحتلط فيها المشاهد اليومية بالحالات والأحلام،  
تصنع الخلطة لها، محمومًا نحو شيء عامص لا أدري كيف  
أفعله، أو متى أفعله، أو مع من أفعله. عندما أعمص عيني، وأصبح أرى  
سعاد تقهر جميمة، لا تؤثر فيها حادثة، أشك أصابعي في كفها الكبير،  
بظفر معاً، كعصفوريس، أو بالأدق، كعصفور وحمامة، لا يصعظا هواء  
ولا تشدبا أرض، بعد من ثوب إسمنجية، طيبة، تقفز فوق أماكن شبه  
ما أعرفها، بيوت صغيرة ناعمة الأسطح دحانية الألوان، تتحرك بأسياية،  
كما يسير بين الماء.

أراها وهي تنشر الملايس خلف كُشكنا، تفعل حركات جريئة  
لا يعرفها الواقع، يتحوّل الكود إلى عطش مستمر ورعة محمومة في

أستيقظ، أشعر بوجع في كعبي وخدر في عمودي الفقري، ورغبة ملحة في العرّص لهواء نقي، يحتضّ مشهدها في الحلم مع مشاهد أخرى. دسّت سعاد مجلة إعلانات أجنبية عارية في الكشك، ثم انتظرت رد فعلي، كيف سأنصرف عند المرحّة على كل هذه الأجساد المكشوفة. ساء يفضّ بتركز أحسادهم الشمعية العارية لأصبع رجال أشداء، وفي الحفلية إعلان عن أحد أنواع اللوف الطبي، تضعها امرأة مافرة الصدر بين ساقها، وتعطي مؤخرتها للمتصفحين.

تربك علاقتي بها عندما أقلب صفحات المجلة، أنا في بداية المراهقة وهي في ذروتها، تتجوب وتلين مع تعبيراتي السريعة، تراوغ مشاعري عن طريق كلمة مفاجئة أو لمسة ناعمة، تمرّك عيني، تهر حرّكانها أو تزيّا حفيّة، وتُحدث خدرًا ورعشة، يفكّ تماسك أفكارني المشوشة، أصل نحالة أقرب لمن يسير وهو نائم، أرتفع عن الأرض ستيتمترات قليلة، أصحّ حقيقًا، لا تؤثر في الجاذبية الأرضية.

بعد أيام قليلة من استلام الأكشاك، تدخل سعاد سريعًا في علاقة حميمة مع أمي العشرية، تعطيني طبق طيخ فأسلّمه لجارتنا مدختنا بناره،

تشكرني سعاد بانسامة تصبح مع مرور الوقت عنوان الألوثة في محلي.  
في اليوم التالي أذهب لأسترد الطبق، فلا تمد سعاد يدها به فارغاً، دائماً،  
فيه طبع، وناذرٌ مُدْعِمٌ بقطعة لحم أو ورق فرحة أو سمكتين في قعر  
صينية فرن، أحمله من كشك وأذهب به إلى كشك.

انتظر وقت العداء، بصعط تلميحاتها على عاءة الطفولة بداحي.  
وتجرمي على حديها، تقسو في الصعط عليها لتحل مكانها عاءة أخرى،  
واسعة وفصفاصة، تتمدد بداحي عاصر حديد، أمط عاءة الرحولة  
الجديدة لتصبح على مقاسي، أفضل في التوفيق بين الرادير، أسح في  
متاهة لا أول لها ولا آخر. أعطيها الطبق فتسحبه وتضغط بأصابعها على  
أصابعي، تحك أظافرها وتحرش كمي، فألق الطبق قبل أن يدنق. ترفع  
يدها، حليتها مقطوع من تحت يعلها، أرى شعراً أسود كثيفاً، أنتعد عي.  
قليلاً، هل ينمو للبنات شعر في أماكن أخرى غير رؤوسهم؟

كانت أمي تدعوها يوم الجمعة من كل أسبوع؛ لتساعدنا في توليفة  
المحشي، باديجان، فلفل، كوسة، ورق عنب، تجلس سعاد على كرسي  
حشبي قصير وتبدأ في التموير، كُتْ أنظر إليها على أنها جل لا يمكنني  
صعوده، ورس لا أملك القدرة على امتطائه، اختلطت أحاسيسي بين  
الطفولة والرحولة، كدب لا أشعر بأي مسهما تتعقد سعاد أن تظهر حراء  
من مسانيتها الشمعية وهي جالسة على الكرسي الحشبي القصير، بضرب  
الوجه نافوحي ويسخن رأسي، لكنه لا يقصي إلى شيء عملي، كاتب  
تحط الكحل فيحدد الدنيا الواسعة في عينيها تنهمك في تفرع الابداح  
من لسانته، يهتز بهداها القويان المتماثلان، مثل رمانتين، يطلقان كمدفع

له مهمة واحدة، تخدير بدني الهش وتقب ثغرات ينفذ منها هجوم ناعم  
على خيالي العشوائي الضعيف.

كانت أمي تُحدثني في موضوع لا يهمي، ولكنه أثارني على محور ما،  
نركها خطيها بعد أن أقعها بأن ترتدي أمامه قميص نوم أحمر كرايش  
وبحارم، طلب منها أن تلسه على اللحم لكي يتأكد من مقاسها، أو لأنه  
يريد أن يعمل بروقة لليلة الدحلة، ربما ليس لهذا ولا ذاك ولكنها فعلت،  
بترعت أمي الطيبة بكلمات لا تقدم ولا تؤخر:

«بكرة تتجوزي سيد سيد. ريتا شاييل لك الخير. النصيب لسه ماجاش  
يا حبيبي»

قالت ثم نظرت إلي.

«ونروح بعيد ليه. عريسك عندي. أهو».

ضحكت سعاد، رتت ضحكها لثما رأتها تشير إلي، تبتسم أمي،  
ضحكة سعاد لمست أحاسيس لا تتغير عنها لغة، تجاوزتني نفسي  
وخرجت تصطاد أشياء لا تعرف عنها أسماءها، كانت في يدي عقلة  
نصب، مندمج عذ بهية العود في برع فشرتها، توقعت العقلة بين شفتي،  
وتوقفت السائل المسكر عن الاستحلاب في حلقي، عصت سعاد شعنها  
السفلى بأسنانها عضه خفيفة، قالت:

«يا ريت يا خالتي. دا عريس غسل. هو أنا أطول اتجوزه».

صتيا كت عندما فعضت شفتي السفلى بين مسانيتها وإبهامها، كأها  
تلاعب طفلاً. ترتد يدها، وقضت أن تعاملني كطفل.

سشغل أُمِّي في تقوير داندخانة طويلة وممتة، ثم تتسع حلة بها ماء على النار، تعطينا ظهرها لدقائق، تستحب أصابع سعاد على ركبتي، نحريش بهمس حتى تصل للععدة التي تربط المعدين، تضغ يد فوق الأخرى، يدها العليا نجواب مع لسانها، أمَّا اليد الراسية بطمأنينة على لعفة فتقر بطلوبي الجير الصيق، تحك معبري برفق، تنح الحركات عرفاً معرّكاً، حاضاً، لا يشاركي فيه أحد، اكتشف لأصابعها وظيفة أخرى أهم من تفريع الياد نخال، يستمر الحك الناعم حتى أشعر سن، مريح ودافئ، ينساب دقات تبدأ قوية، ثم تطي وتراحى، تأخذ من وعي وكاسي وما أرى كل تركيز، تسحب من الإدراك والتجواب مع الأحداث والأجواء وتعطي يدلاً من كل ذلك لده، لذة تصنع هالة من العمام تعطي السماء، تتركز كمادة حام عند منطقة الععدة، يترنح معبري من الشوة، يفقد صلاته المؤقتة دون أن يفقد الريف الهافر المسكر، تتشر القعة الصغيرة، يصحح مركزها ديا حيلته لا يراها غيري، يظهر اللبل على سطح بطلوبي الجير الأرق، سائل لرح بصل لأصابع سعاد، تكف عن النقر، ترفع يدها برفق عندما يدخل أبي حاملاً البصات الثلاث وشنطة الخبز الساخن.

قامت أُمِّي لتكمل طهي ما بدأت تحضيره، جذبتني سعاد إليها، أجلسني على حجرها، أخذت نهر في وتترك جسدي الطالع بالكاد من عشاء الطفولة بلمسات باعمة لا تكاد تلاحظ، يفوق إحساسها المصارحة، حربشات دقيقة، باعمة ومؤثرة، تتدلى قدمي وتلمس الأرض، نرفعي ثانية، تتحسن بأصابعها جسدي الصغير، تطلق أظافرها نملاً كثيراً سدل في ثواب تحت جلدي وانتشر، احتص سلسله ظهر من مركزاً للذة، حذر مؤخرتي وتجوّل بين شعيراتني الدموية، أخذ يعث في معرج أحاسيسي ويعيد ترتيب رغباتي من جسدي، يهدي خيالي، وهم، تصحكان على أشياء لا علاقة لها بي هل شعر آدم بالإحساس نفسه عندما كانت الفتحة في يده تنقصه قصمة، وجمهور السكان الأصليين يقدفونه بالحجارة ويطرده من الوغد القديم؟

تترك سعاد المقوار، تضغ يديها على معدي، رهبرها يلمح حدي، رأسها نجوار رأسي، صربا كمخلوق واحد برأسين، رهراتها الساحة تقطع أمواج أفكار الساذجة، يحرح من عتها عنق لم أشمه من قبل. رائحة حساء بارد وحر ساحن محص، مخلوط برائحة أطفال حديثي الولادة وحليب طبيعي، وعرقها، كعطر قديم معتق، مروح بشخصيات كالتي توضع على الأطعمة الجاهزة لتسهيل تناولها تتجادل سعاد أطراف الحديث مع أُمِّي عن ذكرياتها مع حطيه الناقص، الذي تركها عندما لست قميص النوم الأحمر أمامه، شمع، أو لم يصدق نفسه فترك الجميل بما حمل.



مد أن أصبح جدّي ينام تحت سريري وأنا أخشى أن يلاحظ هزتي على العربة، عندما أحضس الوسادة الطويلة، أسرع عنها بياصتها أم ورد متجبلها فستان رفاقي على سعاد، بأسفل الوسادة ثقب طبيعي يسهل عليّ عمية التخيل، كل ليلة أحضن المخذة، أعصرها فتنيت لها سلسلة ظهر بأعنة، أضمرها فيصدر السرير مزيكاً، يعلن فصيحتي، أحاف من أبي فقط في مثل هذه المسائل، فأني تفانحني جهراً في أحاديث جسدية، ترندي فاع الديس أو قاع الحكايات عن فصائح الجيران يحكي لي كثيراً عن قصة سيدنا يوسف، تطيل في وصف إغواء امرأة العرير وعمة سيدنا يوسف:

«كانت عاززة تضحك على سيدنا يوسف. بس على مين. طبعا مرضيش. ما هو كان نبي يا حبيبي».

تقول لي.

«هز أنا لو ذاكرت وبقيت شاطر حقي نبي؟».

أقول لها. فتضحك ولا ترد.

«يعني إيه تضحك على سيدنا يوسف!!!».

أسأله.

«يعني تخليه ينام معاه».

تحبسي فأتذكر مرة أخرى الواد مطراوي الذي انفق رأسه بعد أن قدعته بطوبه كبيرة، فقد كشف لي عن سر المحبة، كان قلل الأدب، داهمني بسؤاله الكاشف، وأنا أنزع زعزعة خضراء عن عود قصب:

«عارف أبوك وأهلك بيعملوا إيه عشان يخلفوك؟».

«عارف.. بيبوسو بعض».

أحسنت تلا مسالة وأنا أقذف بمصاصة القصب في أذه، فسحب مني العود وتوقف عن المشي، فأنبتت، وتوقفت عن مصّ القصب:

«لا يا عبيط».

نشبت من يده عود القصب مرة أخرى، تغيّرت نبرة صوتي وأنا أسأله:

«أومال إيه؟».

«يب... بعض!».

هبحسني الكلمة، أثارني تحيل أبي وأمي بعلان ما قاله، ضربته بكل ما أوتيت من عزم، أصبحت كتور صغير يرأس كل ما يقابله، كيف يقول مطراوي «اللي ماترباش» هكذا على أبي الطيبة وأمي المحترم، تراجعتم عن تكملة صبره، بعد أن رأيت الدماء تشحب من رأسه، توقفت تمامًا عندما قال ووجهه مُقلم بخطوط حمراء من كل جانب:

«ب آحيي حد حاب سيرة أسوك وأملك.. أنا نتكلم على أبوي وأمي أنا».

وميت كل الطوب، الذي أحضرته في يدي، مسحت وجهه بكم مريسي، لم تحبب آثار كلماته القليلة والكاشمة عن محبتي، تصوّرت طوال الطريق ما قاله لي مطراوي، «كتاب.. مش كتاب.. كتاب.. مش كتاب» لو كان يكذب فلماذا يأم أبي مع أمي في أوضة واحدة؟ ولماذا يقتلناها في بعض الليالي بالتراس؟

بدأت أسأل أمي أسئلة جديدة، أسأله عن ذلك الشيء الخارج من بطن الديك، فور دروله من على ظهر الدجاجة لثائمة تحتها وهي تفرك مثلدة وتكاكي بعومة، أنوب ملغوف ومروم في حجم دودة كبيرة:

«إيه ده يا اما؟».

أسأله فتضحك وتداري قمها بطرف طرحتها السوداء:

«يخيلك يا داد.. ما هو زي اللي عندك يا حبيبي».

شكّلت ملامحي علامة تعجب كبيرة. ولم أسأله بعد ذلك.

## 41

أُتِعِزَّف بعد أيام من الانتقال للاكشاك على محمد جاد أحمد، كَت  
في الصف الأول الإعدادي. تعلَّمت على يديه كيف أدخَن السجائر،  
ثم تعلَّمت كيف أدبِر ثُمها. كان في البداية يعطيني نفسًا أو اثنين، ثم  
صَف سيجارة، ثم تَكَرَّم ونفَحني سيجارة كاملة، وعندما طَلست غيرها  
توقفت يد محمد عن المِص، لكنَّهُ اقترح عليَّ اقتراحًا معرِفًا، لماذا لا أدأ  
في العمل إلى حوار الدراسة؟ رَفِصْتُ أولًا، ثم فَكَّرْتُ في المسألة من  
جديد..

كان محمد جاد أحمد طويل الجذع وأطرافه قصيرة سَيًّا، كنموذج  
مكرر لقرم، في أول أسبوع دراسة، شاركته في مشروع يُلِق بِصَيِّتَيْن،  
نَجلس أمام كرتونة عليها مِربعات بِمِكويت هَش، يرقَد على فرشة  
خَفِيفة من عسل أسود عطِن، نَضَعها على قَفص جَرِيد فاقد الاتزان،  
يلتص حولنا النلاميذ، وفي رِواء تحرق إصبع أول تلميذ واحدة فيكسب  
شِلًّا، كان وضع الشلن «للمُخت» في مقدمة الكرتونة كَمِيلًا بأن نِيع  
ما تَقَى، ونكسب دون اضطرار للتصحية بشلن آخر، ينهد النلاميذ  
علينا، يخرقون في سِناحه أكواح البِكويت الهَشَّة الصِغيرة دون إحِرار

أي مكسب، يندم أغلبهم فور أن يسلب منهم المصروف، يتحسسون بأصابعهم العسل الأسود فلا يجدون أي عملة تعرض في لزوخته.

يقترح محمد حاد أحمد تدعيم المشروع بمعص الحبل لتقويته، في اليوم التالي لاقتراحه حاء وهو يحمل تحت إبطه قرذاً صغيراً من الصباح، رأسه كبير جداً مقارنة بجسده الضئيل، ربط محمد فتلة حمية في لسان القرد، وضعها تحت فحده السميكة، عندما كان يجذبها تشي ممصلة صغيرة فتشد لسان القرد المعرفي بالقود التي عليه، يصع العيال قروشه فوق لسانه، فتترلق القروش والشللات تفتأيا داخل بطن القرد، كنا بعد العيال وعداً بصدقونه دائماً:

«لو الشلل فضل على لسان القرد خير جمع لكم برسع جيء، ولو بلعه يبقى جزواً تاي»

التلاميذ يحسرون يومئذ، عبر أنهم أدمنا اللعبة، تعودوا منظر القرد وهو يفتح فمه الكبير ويخرج لسانه المعقوف، تساعد أدمه على جذب انتباه المارة بكرهما المبالغ فيه، يصع العيال مصروفهم على لسانه، يقبض اللسان على المصروف، يأملون أن يجرح لهم بقروش أخرى كثيرة، لا تنعم أحشاء القرد بشيء، تتلع عن طريق الفتلة المشدودة تحث فتخد محمد كل ما يُعرض عليها، يرداد الزحام يوماً بعد يوم، يصبح كالحواة، أنثى طوفان العيال من مدارس مجاورة ليتزحوا على القرد الصبح ويشاركون في تجربة الورد، يمنحونا مصروفهم عن طيب خاطر. تنكس شكواي أولياء الأمور أمام ناظر المدرسة، يقف الناظر في طابور صباح اليوم التالي، يمد عصاه للأمام ويغني:

«ياما طول عمري رصيت منك أسيّة».

يتنصع وهو يقلد أم كلثوم، يبدو مصحكاً بكرافته القصيره وكرشه لكبير الذي يحجب عه رؤية نصفه الأسفل يصرب كتفه بعصاه ويهرأ رأسه شتوة. محمد حاد أحمد يقف أمامي مباشرة، له قف شامع كأفنية المزارعين، تصطدم عباي بأدبين كبيرتين وبارتين عن رأسه شكل واضح، يمر الناظر أمامنا، أنظر في الأرض حتى لا أضحك، حذاء محمد حاد أحمد أيضاً مصحك، في الصف الأول الإعدادي وبلس مقاس 43.

نواصل العمل في اليوم التالي بالمشروع بعد أن تتبخر كل المعاذير

«الناظر عارف إن احسا المقصودين، عشان تروىخ العيال يقلل عدد مجموعات التقوية اللي هو يشرف عليها».

يقول محمد جاد أحمد، وهو يجذب الفتلة لتضييف قرشاً لأحلامنا المستقلة، يدمع في شرح المسألة والاحتماد في إثبات وجهة نظره، سمع هيصبة آتية من بعيد، رحام بشر ضاق بهم المكان في لحظات، هائجون وكأنهم خارجون نوا من حاقه، يطير القرد في الهواء بعد أن تقذه قدم أحد الوالدين (عرها فيما بعد أنهم أولياء الأمور الذين تقدموا بالشكاوي) يلقف محمد جاد أحمد القرد المعجرة، وأشعل أن يجمع الحصيللة التي تعشرت سن الأقدام، ينفرط الحيط المعلق في لسان القرد، تكز الكرة وتندرج على الأرض، يحمل القرد الصالح ويجري

بلا وجهة محددة، تتوقف عن الحري عند منطقة رابعة واسعة وممتدة، بها حصل ورزائب تطوف حولها اليهاثم، تعوض أقدامها في أكوام روث ساخن وطري.

«هو مشروع خرا من أوله».

أصبح في محمد حاد أحمد، كانت عيابه معلقين على ساطعة بلح أحمر تحملها نخلة شاهقة وعامرة.

«أنا جئت».

يقول وعيابه تبحث عن طوبة ليهدف به اللبح المستوي، ثلاث تصويبات فقط تمطر السماء بلحاً كثيراً، طرياً ولذيذاً، يأكل محمد حاد أحمد ويشرح لي وجهة نظره:

«أؤكد صاحب عريبة الحمص هو اللي سلط أثبات العيال دول وهيجهم علينا».

لسم يقطع حبل آرائه إلا صاحب النخل، ما إن رآنا حتى شلح جلبابه ووشب حلفنا كوحش من هر عانة، بحري، يستقر بنا المطاف عند ترعة الحلوة، نغسل ما تعلق من روث بأقدامنا، يتأمل محمد حاد أحمد أفعالنا نساء يقبلن المواعين على شاطيء التركة، يمصص شفتيه ويحكى عن بعض معامراته في التلصص على جاراته المُسنّة عن طريق مرآة عاكسة، لكن تلك قصة أخرى.

## 42

بدأت أمارس العمل مع محمد جاد أحمد إلى جوار المدرسة، علّمت منه أشياء كثيرة لم أكن أفكر فيها من قبل، كنّا نتابع حط سير الأسلاك الكهرتية المرتمة فوق الأكشاك بشكل عشوائي، كانلات رمادية سلحتها الشمس وفتها الرطوبة، التيار الكهربائي يقطع كثيراً، يختار أنا ومحمد ذلك الوقت، تسلق سقف أحد الأكشاك عند القروب، نصب إلى طرف السلك ونسحب اللغائف، طبقات يدورها محمد حول كتفه وكوعه، ينتهي منها ويصع دائرة عيرها بسرعة. كنتُ أفعل ذلك بتوتر، ومحمد جاد أحمد يفعله بمنزلة.

نتهي من لف أكثر من مئة متر سلك، يضعه محمد في شيكارة أسمنت فارغة كانت بحوزته، نسلل حلف الأكشاك ونوحه للمقابر المحدودة، كانت الشمس تسحب تدريجياً، نأب طلال الناس في الضوء الحافت تسوق أصحابها بين الأكشاك، نواطأ الليل معنا على استكمال الحطة. تلقّت محمد حوله، يتأكد أن أحداً لم يره، يجلس، يخرج سيجارة من اثنتين في جيب قميصه، يشعلها بعد أن يفرغ منها التبغ، الرائد كما يفعل الكبار، كانت ملوثة، أشعلها عدّة مرّات حتى توهجت مقدمتها، ثم من

طرف الشيكارة بالجزء المزهر فمسكت الدار بسرعة في كومة السلك، بعد أقل من دقيقة تحولت الشيكارة إلى كتلة لهب تُخرج دخاناً أسود، ومحمد يسحب أنفاساً من السيارة المرشوفة على حسب فعه، ينقص بقايتها كما يفعل عتاة المدحجين، تؤثر حميف تسحب لأوصالي، تمددت الثيران، ووصل دخانها أفقياً للسماء، حُسن محمد ما يدور في رأسي، فقال بصوت متحشرج يُعلد فيه الكبار:

«مقلقش.. حتى الرجالة اللي بشنات بيخافوا يدخلو التَّربُّب

بالليل».

تصفو النار، تتحول الشيكارة الكرتون إلى تراب أسود، يتعزى السلك بعد أن تسيح قشرته، فوقه تنف من بلاستيك أسود محروق، بللملم ما أسفر عنه الحريق بعد صب الماء عليه، حوالي اثنين كيلو من النحاس الخالص لم تكن المرة الأولى التي يفعلها محمد، لذلك كان مطمئن، يتبسم، عزم عليّ بالسيجارة المتبقية، ترددت كثيراً قبل أن أحدها، لكنني أخذتها، تملكني بهم في الإسراع بتولعها، لم يعطني محمد الفرصة للتعبير، أخرج ولأعة من حيب بتطوئه، وطرق بها في حركة تنم عن حرفة، مديده أمام وجهي لبشعل لي السيارة على طريقة عادل إمام

احترقنا منطقة الأكشاك، ومنها إلى ميدان المطرية، كنت المرة الأولى التي أسير فيها كل هذه المسافة دون مصاحبة الكبار، واجهت المحلات فلبت الليل بهار من شدّة الإضاءة. من الميدان إلى وكالة الملح ساعتين تقريباً، راحوا بين التسكّع والتنظيف في الأتوبيسات، يعرف محمد حاد

أحمد طريقه جيلاً إلى أحد محال الخرقة، وزن رجل يقف على باب المحل السلك وحسب ثمنه، سعة حبيبات كاملة، أنا نصفهم ومحمد نصفهم، أصبح لدي فرصة كبيرة لأشتري علبة كيلوماترا كاملة. أسدى إليّ محمد نصيحة مهمة، تنهي وقال

«العدة سهل اكتشافها في حيبك، لكن سيجارة أو اتببس ممكن بحبيهم بسهولة عن عيين أملك وأنوك»

أَتَعْمَا ثَعَابِيَةُ أَشْهَرُ فِي الْأَكْشَاكُ كَمَا جَلَسَ أَنَا وَمُحَمَّدٌ سَمِعَ إِلَى  
 حِكَايَاتٍ تَنْتَشِرُ كَالْحَقَى فِي كُلِّ مَكَانٍ، حِكَايَاتٍ يَرْوِيهَا الرِّجَالُ لِلرِّجَالِ  
 لِقَتْلِ الْوَقْتِ، أَوْ السَّاءَ لِلْعِيَالِ لِقَتْلِ الْقَمَلِ، أَوْ الرِّجَالِ لِسَاءِ؛ لِيَمُورُوا  
 بِعَشْرِ دَقَاقٍ مِنَ الْمَتْعَةِ الْمَخَانِيَّةِ، أَوْ يَرْوِيهَا الْعِيَالُ لِلْعِيَالِ؛ لِيُظْهَرُوا بِصُورِ  
 الْعَابِينَ أَوْ بِحُلِيِّ حَشَبِ بَدْوِيَّةٍ وَكَيْسٍ كَارُورٍ. لَا تَحْرِجُ الْقَصَصُ عَنِ  
 بَسِيرِ أَشْخَاصٍ يَقُومُونَ بِاللَّيْلِ لِيَقْصُوا حَاجَتَهُمْ فِي دَوْرَةِ الْمَيَاءِ السَّعِيدَةِ،  
 يَسْمَعُونَ أَصْوَاتًا مَحْجُوحَةً تَنْطَلِقُ بِصَرَخٍ مَرَكْرَةٍ أَلَمْ يَأْتِي مِنَ الْمَقَابِرِ،  
 وَتَجْتَمِعُ الْأَرَاءُ عَلَى كَلِمَاتٍ مَعْنِيَةٍ يَسْمَعُهَا السَّائِرُ الْمَزْنُوقُ «السَّكِيَّةُ»..  
 حَرَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا يَا رَفَاعِي. لِيَهْ كَدَهُ يَا رَفَاعِي»، وَيَتَمَقُّ النَّاسُ اتِّفَاقًا عِزَّ  
 مَكْتُوبٍ بِأَن هَذَا الشَّيْخَ كَانَ اسْمُهُ رَفَاعِي، وَرَفَاعِي لَا يَخْرُجُ بَالْهَارِ أَسَدًا،  
 فَالْأَشْيَاحُ لَكِي تَخْفِيفًا لَا بَدَأَ أَنْ تَظْهَرُ فِي الظَّلَامِ.

قَالَ بَعْضُ سَكَّانِ الْأَكْشَاكِ إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ النُّسخَةَ الْأَصْلِيَّةَ مِنَ رَفَاعِي،  
 وَيُؤَكِّدُونَ أَنَّهُ كَانَ إِنْسَانًا عَادِيًّا، لَهُ يَدَا وَقَدَمَانِ وَرَأْسٌ بِهِ شَعْرٌ وَفَتْحَةٌ  
 شَرِحٌ تَنْقُضُ وَتَبْسِطُ عِنْدَمَا يَخَافُ. وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَهُ أَحَدُ أَقْدَابِهِ،  
 يَدْبَحُهُ وَيَعْبَاهُ فِي شَيْكَارَةٍ، يَكْتُمُهُ لَكِي لَا يَهْرَبَ مِنَ الْمَقَابِرِ وَيَتَحَوَّلَ إِلَى

شيخ، ولكن رفاعي يهرب، ويتحوّل إلى شيخ، وأسأل: ما دام رفاعي هو الذي يتكلم فكيف يكون هو نفسه المحاطب؟ لا بد لكى نستقيم الحكاية أن يتحدث رفاعي بنفسه ويخاطب شخصاً له اسم آخر.

اتمّن الناس على أن رفاعي الأصلي كان يعيش في الأكشاك، مد عشرين عاماً، ولكن لم يذكرُوا دم الكشك، اقتنع حذى طلبة بعد سماع الحكاية أن كشك رفاعي لا بد أنه كان يحمل الرقم 13.

وأتركهم بطون، من يتحيل نصف رفاعي الأسفل إسناً، ونصفه الأعلى طبناً، ومن يقول إنه رآه مُكْتَمّاً يخال صلب يعجب بعينه من الركة حتى حَفَّتْ وبانت فيها قراميط صغيرة سوداء، ومهم من شط حباله بعيداً، وقال إن الركة الصغيرة ما هي إلا رقة فكّها رفاعي وذهب إلى مرقده، فأبت بأمر الجن أن تجف.

انتشرت الحكايات عن رفاعي، أصبح من الصعب صطى إيقاعها، وأسأل محمد جاد أحمد عن ذلك الشخص الأسطوري، يرد عليّ والثقة تنضح من ملامحه.

«رفاعي بعد ما كتّفوه ودقّوه خرج أربعين مرة. وبى الأربعين كشك دول. وبعد الأربعين نتاعه بطل يجرّج وبطل يسي أكشاك. بقى يخرّج يتفرّج عليها بس لَمَّا يجيله مراحه».

وعندما بدا عليّ تُعثرُ ألفهم أضاف محمد:

«أوامال».

تستعمل سيرة رفاعي، وأسأل عنه شخصاً يسكن منطقة الإيواء مد ر من بعيد، كان صاحب ورشة سمكرة حلف الأكشاك، أراه كل يوم وأن عائد من المدرسة، أطرح عليه السؤال الذي يحترق بي، يقول وهو يُستريح عود إمتنلس يغاز الأرجون في دوامة سياره:

«عالم فاصية رفاعي إيه وبتاع إيه؟ يا انسي الثرب دي نتاعه بصارى من يعجي متين سنة. وقبلها كانت أرض زراعة اسمها حوض جرجس. الحكومة حدث منها حته عملتها إسواه والدي فضّل تُرب ري ما هو. بس. آدي الحكاية».

أترك الرجل الذي اشعل في مُسَدّس الشوري وقناع اللحم.

وتظهر حكاية أخرى في مظقة الأكشاك قبل أن أسى سيرة رفاعي.



خلف كشكنا تنمو شجرة، قالوا إنها نوع نادر من شجر البلسم،  
 تلمس غصونها سقف الكشك، عليها أخاديد وبرورات، قالوا مرة إنه  
 اسم الجلالة، ومرة اسم سيدنا محمد ﷺ، ومرة كلمة الإسراء والمعراج  
 وفي آخر مرة قال أحد السكّان إنه رأى على جذعها ملامح الرعم جمال  
 عبدالناصر، لا يتقصه إلا طرف أمه الحاد، وأسعله كلمة ناصر، يعجب  
 عنها حرف الصاد..

لم أكذب حراً ودهمت أنأمل فيها ما سمعت عنه، معي ظلي الدائم،  
 محمد جاد أحمد، كان الوقت ليلاً، ومحمد كعنة اللصوص، يحمل معه  
 دائماً كشافاً صغيراً ببطارية، لروم تفقد المواقع ومعينة الصائغ، صرب  
 محمد الكشاف في جلع الشجرة، فظهرت لنا أشياء أخرى تفقد خيالاتها  
 كأمواح رمادية صغيرة ترقص في طبق، قال محمد إنه شاف عصمورة  
 دليل ملون تقف على عصن أحصر، وقلت له إنني رأيت أرنبا أبيض  
 بأذنين أطول من اللارم يسحرك سطاء فوق عشب بني، لم يحد أنرا لما  
 سمعنا عنه، عندما مر محمد علي في الصباح، وقبل الذهاب للمدرسة،  
 تأملنا الحذع مرة أخرى، بطرت إلى محمد وبظر لي، فقد مُسح من على

الشجرة كل ما رأيناه بالليل، كل ما حدث آتي رأيت شيئاً صغيراً ملتصقاً، كان يقرأ القرآن، وهو سائد ظهره على جذعها.

بنفطة أمي الربيعة أيقنت أن الشجرة سيطهر لها روار، ولا بد سيكون القادمون ضيوف الرحمن من الأقياء الورعين، كانت مناسبة لإظهار إيمانها العميق، مستصيف بقدر استطاعتها الناس الصالحين، تُقدّم لهم الماء المثلج، والشاي إن أمكن. بدأت في ترتيب الكشك من حديد، بشكل يناسب استقبال ضيوف، وكله لله دقّ أبي كرسياً كان مكوّناً بلا قرصة، رضى في فتحته سلح مخلوعة من صاديق ربة مريم ومسر فيه كرتونة شجعة، رمى عليها قطعة قماش مسحة كانت كسوة لمسد

بدأ الروار بالفعل في التوافد، عددهم فاق المحتمل بعد ساعات قليلة، تحوّل محيط كشكنا المُستريح رائحة بول حارنا العجور إلى مرار. في البداية كان الروار فقط من سكان الإيواء والمساكن المجاورة، ولكن في اليوم التالي جاءت الناس تبكي قبل أن ترى الشجرة، أشخاص يهرولون وأقدامهم تُزخف الغبار بين الأكشاك.

في أول صلاة جمعة بعد هذا الاكتشاف وجد خطاء المنابر ما يجذبون به آذان الناس مُهدّيت الأرض للحديث عن الأولياء والأسلاف الأكثر ورعاً في أمة الإسلام التي أصبحت كثفاء السيل، صوب الوعاط سهام موحية إلى هؤلاء الذين سبيلهم العولى التقدير سبب انتعاشهم عن الطريق القويم.

تظهر المنطقة المسماة فجأة على الخريطة، تعرف مصفحات الشرطة طريقها إليها، تدكروا في شيء آخر غير المصائب، يطوّق أفراد الأمن الأكشاك ويظّمون الناس، بعض إصابات ورضوض وقعت سبب التدافع. أصبح دخولي إلى باب الكشك لا يتم إلا بأكروبت، وحروجي إلى الحقام لا تحذي إلا بالغرف فوق الناس. عشرة أيام لم يمك فيها نوم وجدي طله يقول لأحد الصباط:

«مناخذوها يا باشا وترتحنونا منها».

ويرد الباشا:

«انت عاور تودينا في داهة يا حاح؟ هي فيه مُعجرة بتشفل من مكانها؟ دي الناس كانت تاكلنا».

يلعن أبي الساعة التي دق فيها الكرسى وزينه بالمقرش، وبعد تفكير طويل يلعن الشجرة نفسها.

نكات فلاشات التصوير بالليل تصتحي الأموات، وجاحال الزائرين بالهار ترمد الأكشاك، يتجمّع الناس فوق سقف الكشك، مصطوف كاميراتهم ليمكّنوا من التصوير بوضوح، أسمع ديسهم الجماعي وكأن كوكبا من الفئران سقط فوق رؤوسنا لا تحرج أي من الكشك إلا للشديد القوي، وأبي أكثر الحاسرين في موقعة الشجرة المباركة، فدخله إلى الكشك بعد العصر أشبه بمعجزة تتخطى معجزة الشجرة نفسها، يعود مرة أخرى لسببه ولعناته، أصبحت الحياة لا تُطاق.

بعد أن انقضى أكثر من أسبوع عاد كل شيء كما كان، دون أنساب واصحة، تمسحت المصمحة واليو كسين بشاواتها وعساكرها. لم يعد أحد يبكي بجوار الشجرة، حتى الشاب الصغير الملنحي، اكتشف أن قراءة الفراء في المسجد المصنّى النظيف، أفضل من قراءته في الشارع بين الباموس والحشرات. عادت المنطقة هادئة، الناس الذين بصوا العجاء فجأة حلف كشكنا، طووها فجأة، وفي الحاليتين لم يقدموا أسنان مقعة.

## 45

نفصل التيار الكهربائي، نتوقف الثلاثة عن ربه، ويتوقف المسجل عن دق دقوف المتأحين، يدب الخوف في قلب أبي.

فقد كانت سيرة قُطّاع الطرق قوية في أرض الأكشاك، ولكن ماد سيمسرون من أكشاك فقيرة لا يجد ساكوه قوت يومهم؟ مع مرور الأيام أعرف أن لكل منطقة بيوتها وشوارعها ورئيس حيتها، وكذلك نكل منطقة لموصها، ملثمون يقتلون من أجل مسجل توشينا باب واحد، أو محفظة فيها جنهان وكرنيه أنويس وصورة لطفل

يجلس أبي ويمسك برأسه، يعصره، يفتح باب الكشك ليستطلع الأجواء بالخارج:

«بالك لوجم؟ هنقف لهم ونكسر دماغهم».

يجيب عن سؤال لم أسأله، يتراجع خطوة للخلف عندما يسمع وقع أقدام بالحارج، صوت طغى ملصص، يرداد وصوًا مع كل خطوة، أنا وهو فقط مستيقظان، وأمي وتحتي وجدي في سابع نومة.

يعلق أبي باب الكشك بالنتراس، يصع خلفه كرسيًا ويجلس فوقه لم تكن تصرفات شخص يُمهّد لأي مواجهة، يهمس إليّ بأن أرفع السمع

معه لأي صوت بالحارح أريز مستمر يشق الهواء، لا يمكنني تحليله سببه.

صغير الريح كشرح في ورق كرتون، تهمد الأصوات بعد قليل، باب الكشك مقول ناترياسين، الكبير والصغير، أسمع وقع بول جارنا المس حلف الكشك، ثم يسود بعد ذلك صمت محيف من سلطة الورد الصعيقة، فوق حلق باب الكشك، يرى أبي ضوءاً يقترب، تنعت منه كلمة لا يقصدها «مشاعل المسر» يتبع الكلمة، يتوهها سؤال سريع «النور هو نور إيه ده؟» يقترب الضوء، سمع صوت طرق على الباب المتداعي، يستجمع أبي شجاعته يسعل «إحم. إحم» ينظر إليّ بطر حاطفة ثم يقترب من الباب باندفاع غير متوقع، يفتح بسرعة على مصراعيه. من تحت ذراعه أنظر، أرى جارنا العجوز يحمل «كلوب» ويحوله بكمه الآخر لكي لا تقع «الرتبة» من شدة الهواء، يسأل أبي بصوت واهن:

«الأقش عندك حطاية للصداق؟»

ودون أخذ ورد، يعطيه أبي الحقة، ينصرف الرجل العجوز، ويحتفي الضوء تدريجياً.

وقت انقطاع الكهرباء، يلبس حيراسا في أكشاكهم، يكتمون حول قصعة نار أو طبق طبخ، فيمكس سماع صيحة أحدهم وهو في فراشه، أو صيحة روحه يفرضها ووجهها، نعرفه من نبرة صوته لتحديد مسافة الكشك. كان النور مقطوعاً وأنا مزنونق بشدة، قلت لأبي:

«أنا رايح دورة المياه».

قال: «استني.. جاي معاك».

يخرج وكل منا يرى حجم الآخر ولا يستطيع تحديد ملامحه على بُعد خطوة واحدة، بعد انتهاء آخر كشك وظهور دورة المياه أطلعت الأرض، بالكاد يمكنني رؤية كفي، لا يقل الصمت رعنا عن انطلام، كلاهما يسحب قدمي من فوق الأرض، فأصيح كم يستعد للنوم، أو للطيران.

وصل. وأمام دورة المياه بقع، قل أن بدخل بخطوة واحدة، عند العتبة، تشق الأرض ويخرج من بطنها ملثمون ثلاثة، في يد كل واحد سيف، وفي جنبه سجة، يقف أبي كالصم، يتحر كل ما تعلمه في الدب، يكاد يول على نفسه من فرط المفاجأة. يقترب أحدهم، كان ضوياً لمعل الرهبة والظلام، يقول كلمات تاهت فيها مخارج الأنفاظ:

«طلّعوا اللي معاكم».

يجلس أبي من ذراعي في حركة عريضة، صرت خلفه تقريباً، تكتمش خيالات لصووص الطريق، أرى من خلفنا ضوءاً آتياً، نفس الكلوب الذي كان يحملهم حارن العجوز، يضع يده بالقرب من الرتبة، يقترب منا، في نفس الوقت يصيح أحد المصلين في مكر الصوت بالمسجد «الصلاة جبر من النوم» نداهم أبي همة مسعها الحوف، تملث همته في بدء بصوت عالٍ على الجار الذي يحمل الكلوب:

«خُليّ بالك يا بو محمد... الرتبة ضعيفة والهوا شديد».

«سا ما يوريكوا يا جماعة حاكم السكر دا يحسلي لامؤاخدة نمية  
تنزل نقطة نقطة. وكل نقطة نار يتحرق مكانها».

لا أرد، ولا أبي ردة، ويردف الرجل:

«ويعدين هو انت بتقول لي يا بو محمد ليه؟».

ويرد أبي الذي فاجأه السؤال:

«أوماك إنت أبو إيه؟».

يصمت الرجل، ينعكس خيال عمود نور على وجهه، لا يرد حتى  
يصل إلى كشكه، يصع الكلوب أولاً على حجر كبير أمام الباب، ثم يفتح  
قفل الكشك، ويرفع عُليقة الكلوب، يعطس داخل العروسة المظلمة ثم  
يلتفت ويقول:

«أنا مش أبو محمد... أنا مش أبو حد خالص.. بقالي ست سنين  
عايش لو حدي في الكشك ده مستسي استدارة الشقة لا حد بيورربي  
ولا يزور حد».

يتسم أنسامة شاحبة، يضحك ويهتز، ثم أسمع صوت الترابان يغلق  
من الداخل.

يقترب الجار أكثر، يظهر أمامه مُلام بيجامه كستور باهنة، تتدلى  
منها قدماء ويشرب من قنينة عبق نحيف يحمل رأساً. لم يكن أمام  
قُطاع الطرق إلا الاستعداد للهرب قبل استعمال الأمر ومجوم الأهالي  
عليهم. مثلما طهروا حاجة احتوا حاجة يتلعب الظلام الأشباح، كأن لهم  
في الأرض جحوراً، يقترب حارماً، يمسك ما بين ساقيه ويقعصه، أمام  
دورة المياه يعطي الكلوب، ويقول بصوت منحرج بالكاد أسمع:

«امسك يا حبيبي أحسن المية خلاص. حتنزّل».

يرتبك أبي، يضع يده على كتف الجار العجوز، ودون أن يتلفظ  
أساوّل منه الكلوب، تُسرّع خطوات الرجل، يتخلى عتبة دورة المياه،  
يفتبّ بالداحل، تصحح العروسة متاحة؛ ليشرح لي أبي موقفه الحقيقي من  
قُطاع الطرق:

«فقدوا بجندهم. بالك لو كانوا وقموا كماك دقيقة واحدة يس. أنا  
كنت قطعّتهم وشربت من دمّهم أصل دي عالم تحاف متخشّش»

لا أرد عليه، يحاول حمل الكلوب عني برفق، ثم يعاود الحديث عن  
اللصوص:

«أنت تعرف إن كل الحرمانية قديم صعيّف؟ يعني خبطة واحدة من  
إيد عيّل صغّير، ممكن الحرامي يروح فيها».

وأحذّ منه الكلوب، يجرّح جوارنا العجوز مادياً عليه الارتياح. يحمل  
عنا الكلوب، يشرح وجهة نظره في شيء آخر تماماً:

تسلل النور من ثقوب في السماء، لَوْن الضوء معالم الأشياء،  
ومنتها بعضا تكشفها وتحق الطلام تدريجيًا. ندخل إلى عمق الكشك،  
تفانلنا أمي في طريقها للحارج يسألها أبي عن سبب الحروح المبكر،  
وتُجيب:

«رايحة السوق».

تجذسي من يدي في اتجاه الحروح، كت أشتق لحصن السرير،  
وأحر لأحلام ناعمة بعد هذه الليلة الحشنة، لا أرفض يد أمي عاليا.  
ابصاع للحروح معها، تدفع بي حاصحة، كأنها مستطير بعد قليل، تنحرف  
قليلا عن طريق السوق، وأسألها:

«انتي مش رايحة السوق».

وتجيب بصوت واثق:

«لا»

بصحة أمي، ليست هناك فروق كبيرة بين المشاوير، كلها لها طعم  
الطمانينة. تترك منطقة الأكشاك، نجتاز الورش المعلقة، والمسجد

الصغير ودورة المياه، يظهر أمامنا الشارع الرئيسي المفضي إلى المسلة الفرعونية المشهورة.

نتوقف أمي عند بوابة المسلة الرئيسية، حولها تحلّس ساء كثيرات، بملاسن فقيرة وملامح جائعة، يتطرن شيئاً ما. ندعس أمي يمين. تجدسي بحوارها أمام النّوّاة، بعض النساء معهن أكثر من طفل، هل ستسوّّل بي أمي؟

على البوابة يقف رجل أمن أسمر طويل، يز هو يبلّثه الكحلّية وشريطين غيره على كتفيه، يتحدث كصول وجد أمامه كتبه من حدود مستجدين

«لسة مش دلوقتي.. فاضل ييجي ساعة. وسّعوا شوية».

لم يُسمح أحد، كان يقول ذلك ليث مكاتته المتميزة فقط، والرجل كما يظهر للأعنى يتوقّ على كل الموحودين، بدءاً من وقته وهيبته، ومروءاً بابتعاده عنهم بمسافة ملحوظة، ومسحبه نفس من السجّارة في حركة مسرحية، وانتهاءً بكلماته الغليظة، التي يستخدمها في الرد على الاستفسارات الكثيرة. يولّع السجّارة من بعضها، والباقى منهم من قام ومنهم من على وشك النوم.

تدب همّة مفاجئة في جميع الموجودين عند سماع صوت محرك سيّارة يقترب، ومع صوت المحرك تظهر بالفعل سيّارة نقل كبيرة، ييها وبين النّوّاة حوالى خمسين متراً، يهجم الناس على رجل الأمن الأسمر

الطويل، يعلق الرجل البوابة بتجنيز مهذب، الجمهور بالحارح بعدم فتح القفل للسيّارة إن لم يعودوا لأماكنهم كما كانوا. لا يفتح بالفعل إلا بعد أن عادوا صاعرين، ممثلين لأوامره، هسّ الرجل شعبه الصغير وقال:

«طب ما تستنوها برّه أحسن».

وترد إحدى الواقفات:

«يا باشا ماحنا مش عارفين حتقضي فين المرة دي؟».

ويتكيف من كلمة يا باشا، فيتندمج في الحوار أكثر:

«اسم عشان علانة وأعلب من اللعب. أنا هسأل لكم عن مكان تغريغ المحمّلة المرة دي فين بالطبط».

ويغيب الرجل داخل البوابة، لا يسى أن يعلقها من الداح؛ لكي لا يهجم عليه الشعب الصغير المسحّز بالحارح، يعيب لدقيقتين ثم يعوف يغلق البوابة من الخارج، يقف ويخطب في الناس.

«العريّة هترمي حولتها عند أول السور من ناحية المسلة».

وتسأله إحداهن:

«كلمة شرف يا باشا؟».

«كلمة شرف».

«إلهي يسترّك. بينا يا جماعة نروح على هناك»

بدا السائق مدرّكاً على مثل هذه الزفة، أفرع حمولته ومن حوله ساء وعيال يرتفع قلاب السيارة قليلاً، تهلّل النساء وتهيص الأطفال يفتح «بصندوق الحلبي» بصدر صريراً مرعفاً، يزلق غبار كالدخان، تتبعه كُتل بيضاء مختلفة الأحجام، أطباق صبي مشطوف حوافها، فحين شاي بلا يد فتاجين قهوة متبججة الاستدارة وغير واضحة الرسمة، قاعدة حتم صيني مقدوغة، حوض به كسر، صبتانات مشروخة أو غير مطابقة للمواصفات، مشجبت تقصصها حلقة، نالت المسح حذفاً تحفظها الأيدي المتحفزة، وتلف كل ما تطوله.

تبعطني أمي عن السيارة تندس بين الهاجمات، تضرب يدها في أكوام القش وتخرج بما فيه الصيب، تعطي ثلاثة فحين معونة بأشياء غير مهمة، مقشّرة أو مشرشرة الحواف. في الغطس الثاني خرج إصبعها، لم تهتم إلا بما حصّلت، كان بصيها صتانة وثلاثة أطباق، أحدها فاقد لزعده، تعطني كومة قش، وتحلّسي عليها بعيداً عن عجلات السيارة، وأعيس الناس، تنقل ما تأخذه من حمولة السيارة، وتدفعه في القش، لا تنسى في كل مرة أن تحذّرنني:

«إوعي تدي حاجة لحد».

تقولها وتصرّف، وفعل أن يتعد عني يعود مرة أخرى لتكمل النصيحة:

«ولا تاخذ حاجة من حد».

قالتها فحرّكت الجموع خلفها بسهولة، حرب النساء مبالغ إلى طريق السور من ناحية المسلة، وخف السائرون التراب فطار وصب الرؤية، أصبح كعديت خرج من تحت الأرض، وأنا أسك بيد أمي ولا أهم شيئاً، فقط أجري ولا وقت لذي للسؤال، خطوة أمي الخفيفة بدت محددة عندما قاربتها فعر ساء صغيرات أخف من الريشة، صرا كمجموعة كوسارس يمثلون مشهداً في فيلم عن الحروب الدانة توقفت لنا السترات حتى عبرنا الطريق، الناس لا يهمهم السيارات المتهورة ولا عثرات الطريق، كل ما يهم هو الوصول لهدف حتى الآن لا أعرفه.

أعلب النساء المهور ولات بلسن ملابس البست، جلايب أقرب لمصان يوم بكم، من تحتها تظهر كلاسيسر حالي أعدها ثبّة، تُرّخف شاشهم البلاستيك السوداء في الأسفلت أجري مع أمي ولا أدري إن كنت أنحق بشيء أم أهرب من شيء. داهمت الهمة الجموع. عند اقتراب السور من ناحية المسلة تناطأت الحطّ، خفّت السرعة حتى توقّف قطار النساء عن تقليب التراب وحرث الطريق، ثلّت اتجاهات الرؤوس إلى بوابة مهجورة اتعدت كثيراً، هللت التسوقة، عندما لمحت إحدى السيارة المقل الكبيرة تنهادى وتنطوح كصندوق سكران في آخر الشارع، عند اقترانها وسعت لها الجماهير، صعب الساء دائره لكي تنوغل السيارة فيها، حوّلها من كل الاتجاهات، فأصبحت السيارة بحمولتها كالجزيرة بين أمواج الناس.



تعيب بين أكرام النساء، تصرف السيارة ببطء، يحاول السائق تقادي عيال صغيرة، لا تريد أطوال بعضهم على ارتفاع إطار السيارة. يحاول كذلك تقادي نساء، أسكرتهن نشوة امتلاك العصي، ونسبن أنفسهن وهن ساندات على الصدوف الحديدية القلاب. تصرف السيارة، يشتد الهجوم على محتوياتها، هط حل محلفات شركة الصيني بشكل ملحوظ، تحوّل إلى كومة صغيرة، لم يبق منها إلا ركام لا يعيد في شيء. أمي لا تزال غائبة بين أكرام النساء ويقايا الشلدرات البيضاء الحادة. أفكر في ترك العائش ومحاولة البحث عنها، أترجم عندما أتذكر التحديرات والصباح، بعد مدة يأتي صوته من مجهّد، يخرج من أحبال صوتيّة مجروحة:

«بتاعتي.. أنا اللي مسكتها الأول».

يغيب صوت أمي لشواي، تظهر بعد قليل وهي تحمل على رأسها قاعدة حثام بيد، تمشي مرفوعة الهامة صلبة العود، تلها دؤامات ترابية وتظر نظرة من فاز فوزاً عظيماً، تقف أمامي وتترّل حملها، تضع داخل القاعدة عددًا لا بأس به من المحضلة الصغيرة، صناديق وأطباق وهاجين، ثم ترفعها مرة أخرى على رأسها، الملح في القاعدة الصيني فدعة وكسر في صوانها الداخلي. أحمل ما تبقى من المحضلة، وأمشي خلفها

أرى بصبي وأمي كملتين وجدنا طعامهما في نقطة عمل وقعت من شخص عابر.

هي لحظات حاططة وسريعة يتلاشى وقع أقدام الناس من حولي، توارى أصوات السيارات ورعيق الباعة، حتى العبار، يتحوّل إلى دحان ملوّن لا يؤثر على رؤيتي، أن وأمي فقط تتلّع بقطعة من السحاب العالي، أرى كل شيء صغيراً وتافهاً، لا يربطي بالعالم الذي كنت فيه إلا ما أحمله من محتاجات صيني معبوة.

تجدني أمي بعف من أمام سيارة مسرعة، تهزني كأنها تحصن قرية لبن:

«فُتح للطريق. امشي ري سواق العربية بصن ثابّة يمس وثابّة شمال وميّة فُدامك».

عندما يصل تصع أُمِّي القاعدة أدم الكشك، يتفرج أبي وتحيي عليها،  
يحملقان مده طويلن، بملس جدي طلة على حوافها، ثم يجلس فوقها  
كالجالس على كرسي، ويسأل:

«أومال فين مستلزماتها؟».

ترد أُمِّي وهي تخلع طرحتها لتبقى بالإيشارب القصير:

«مستلزمات إيه؟».

يضع جدي طلة رجلاً على رجل ويبدأ الشرح:

«دي لها سيفون وشطاف وسباكة.. أومال. دالسه دنيا ياها».

نرحل أُمِّي الأطباق والفناجيس على رف حشني ارتجالني بحوار  
الشك، تبدأ فرر طماطم طرقة من الثلاث، تفحصها في مصفاة لتحضير  
الغداء.

«أنا جيت القصيرة وأنتم بقى عليكم الباقي».

يقرب أبي من القاعدة، يلف حولها مرتين:

«أنت جيتيها منين؟»

«من باب الله».

يتقنص فتحي دور الخير العالم ببواطن الأمور، يقول:

«يا جماعة دي عاوزه حفتيات مية ومواسير وحاجات كتيرة مش موجودة أساساً في الكشك».

يقول أمي وكأنه اكتشف شيئاً جديداً:

«أومال جانيها نعمل بيها إيه؟».

يقترّب منا جارتنا المريضة بالسكّر، تأمل الرجل القاعدة الصيني بإعجاب، يتابعها بكل تركيز، ثم يخصّ أمي بسؤال:

«منين القصرية دي يا ست؟».

ترفع يدها من المصفاة وتخرج، تطوف حول القاعدة البيضاء، كمكتشف تأكّد من أهمية اكتشافه:

«من عربية الخزف».

تقول ويدها تنطق عصير الطماطم الأحمر فوق القاعدة البيضاء.

«أنا عايزها».

يقول الرجل بصوت واهٍ يليق بعريض، لم تكمل أمي هرس الطماطم، تتأمل القاعدة الصيني جيداً، وتحقق ملامحها، ثم تتأفّل الرجل طويلاً قبل أن تقول:

«وحتمل بها إيه يا عم؟».

ويجب الرجل بثقة:

«وانت حتملي بها إيه؟».

«جميعها لبتاع الروبايكيا، وأجب بتمنها كشاكيل للعيال».

يختار الرجل في الرد، يقول وناصيته تلمع تحت أشعة الشمس الخفيفة التي بدأت تغرش الأرض:

«أنا حبيب لك الكشاكيل وأخذ القصرية».

«يرضه مقلتلش حتمل بها إيه يا عم؟».

ويرد العم:

«معمل فيها ري الناس... دورة الميه بعيدة يا بتي المية تحرقني كل ربع ساعة.. وتعب جامد. رينا ما يوركي».

وتعطي أمي القاعدة الصيني للرجل دون مقابل.

لم تكن تعرف له اسمًا، يعيش وحيداً بلا روجة أو أماء، لا يروّر أحداً، ولا يزوره أحد، يؤكد مراراً على غلق باب الكشك جيداً، يسد فواصل الباب بسلح خشب، المافدة الوحيدة التي تربطه بالحارج دائماً مغلقة ومدقور فيها حشّة متقاطعة ومُسَمّرة في مساء اليوم نفسه، تسمع دقاً واهساً صدر من كشك الرجل، يطير النوم من عيني، أنسخت في اتجاه الصوت، ألمح بانه موارباً، أقترّب، أرى ما يفعله، يحصر حفرة ويُمكّن

القاعدة في ركن مروي، يشق لها محرى، قناة صغيرة تعبر خارج الجدار،  
بحوار القاعدة جردل به ماء يسبح على فوهته كور صميص، يجلس الرجل  
على القاعدة ويهرأه ليتأكد من متانتها، يرفع حنابيه ويرل كلسونه، ثم  
يجلس مرة أخرى ليحزبها عملياً. أنتعد عن الكشك، وصوت ازبظام  
الماء بالقاعدة الخزف يأتيني قوياً من الخلف.

بعد ذلك، لم أر حاروا العجور لأكثر من شهر، لم أسمع له حشاً،  
حتى ظننته ستم عقد الشقة وترك الكشك دون أن يقول لأحد.

## 48

برئت جدي طلة المكن ويهدمه بشاط عريب، يساوي متعلقاته  
نصر ومرتحة تطل من ملامحه، يرفع المرننة ويضعها في الشمس دون  
مساعدة من أحد، يعسل الملاءة بنفسه ويشرها خلف الكشك، يُبذل  
حنابيه المنسج الذي يميزه بأجر كشيمير له قطان عريض ولا مع، يضع لائحة  
بطيفة ومكوثة على قماه، يجذب من الجايبس ويوارن بين طرفيها، شعره  
مخبي بلون قشرة الفصل. يجلس فوق سريري يتظر أن يعلق أحد على  
مظهره الحديد تشغل أمني ترتيب بعض الأشياء فوق سطح الثلاثية،  
تكنسها بحرقه وتضع فوقها ممرشاً مشرشاً وقصرية زرع صاعبي، تقف  
سعاد بحوار أمني، تسألها عن طريقه جديدة لعمل المسفحة  
ألمح جذي طلة نهيتته الجديدة ولا أحرز على التعليق، لا أصدق أنه  
فعل كل ذلك دون مساعدة. بدا جدي الذي تحطى الثمانين جدياً وفي  
طلته أبهة بشكل ما.

أتي تناع جدي في مظهره الجديد، نهرش رأسه من فوق إشب ربه  
الأزرق القصير، وجدي طلة يلثم «لغته» التي سبها تحت الكتبة لسنين  
طويلة، يحرح من تحت سريري، يتفرص فوقه. يهرلك، يحمر وجهه  
وتلمع عيابه، لم يكن أبي موجوداً، فانطلق جدي وكأن الجملة خرجت  
من آخر غير:

«عاوز أتجوز».

توقف عن كل ما كنا نفعله، كل ما كنا نفكر فيه، وكأن حملته تَبَيَّنَت الصورة، استطاع في أقل من ثانية أن يجعلنا أصداناً، لضمنا الجملة تلو الأخرى بالكلمات نفسها:

«بنقول إيه؟»

«إيه عاوز أتجوز.. كان حيب ولّا حرام؟».

توقّف سعاد عن تكملة ما بدأته من تفسير الاذنجان، وتوجّل أمي شرح وتفسير ما تبقى من خطوات لطهي المسقعة، وبختر جميعاً كيف سواجه هذا المطلب، هل لا زال حدي طلبة بحتفظ بين أحشائه برغبة في النساء، هل عندما يرحي الليل ستأثره ويفرد الخيال حصيره، يعانق حدي ويصاحبه بات جميلات، ينسرس إليه في الأحلام؟ يحتلم ويستحم؟

تُنشَفُ أمي يديها في حلبائها بسرعة، تجلس بجوارها، تصع يدما العفية على كتفه الهزيل، تأمله جيداً وكأنها براه للمرة الأولى

«انت عاوز تتجوز بجدا يابا طلبة؟».

«هي غتية؟ ماقلنا عايزين نترقت».

يشيح بوجهه عنها عاصباً كطفل لا يزال يتعلم الرط بين الأحاسيس والتعبيرات، تقفز سعاد إلى الحاحية الأخرى، يُحاصر حدي، تطر سعاد إليه وكأنها أمام عصبية خرجت من بطن الزمان، تنفّج جميعاً عليه، عيناه براتقان، ضيقتان تلتهمان ما تطوله من متعلقات في الكشك، تنجف أمي يديها وتأمله، تنفّج أساورها، تضحك وهي تقول:

«آه وماله يا بهار الهنا، طيب ماقلتش يابا طلبة. أنت حاطط عينك على حد يعني ولا تسييني أنا أختارلك؟».

يتأملها جدي وهو في كامل الأبهة، ويسألها:

«عندك حد؟».

«عندي؟ آه أومال. داتا عندي وعندي. بس انت تشاور».

نصع إيهامها وسبائها على شعثها السفلى، نعرض انسامتها ونقول:

«ولا انت في ضميرك حد معين؟».

يتمتع جدي طلبة التليفزيون الصغير المكون، خلف باب الكشك، فتظهر على الشاشة لقطات من المسلسل العربي الذي يداع حد الطهر، أحداثه عادية ومكررة، ماذا يريد جدي طلبة؟

سابع معه عتة مشاهد، وقل أن سأل أحد عما يقصد بالضبط، يصيح كطفل صغير أرهقه البحث عن لعبته:

«أمه.. هي دي البيت اللي أنا عاوز أتجوزها».

يشير إلى قاعة باذعة جميلة، تُصدّم إعلاناً يتحلل للمسلسل عن نوع صابون جديد، تظهر مرة وهي تحت الدش بمسك ناصبوبة، ترقى من على صدرها إلى بطنها، ثم تقطع للقطعة الناصبوبة نفسها ودات اليد إلى ركني العنفة، ثم تظهر مرة أخرى وأصابعها الناعمة الالامعة ملء الشاشة وهي تعلمها بالصابونة المراد الإعلان عنها، نخار، وبخاصة أمي التي تُدير المشهد، ماذا ستقول له؟ جدي طلبة لا يستطيع دخول الحمام دون

مساعدة؟ جاءت، العكرة قلم تردد، تسحب بجوارحه وحلست، ثم قالت باستهتار:

«دي بت مايصة بابا طلبة. والنوع ده حيخش النار.»

«أخش معاها!»

«تخش فين؟»

«النار. هو أنا يعني ضامن أخش الجنة أوي.»

«كلام إيه ده بس بابا طلبة!»

«هو ده الكلام. نيعوا البص فداد بناغي وتجوروني ولو خبيتو عتي مكان بتها حروح أسأل عليها في التليفزيون»

تعمل محولات أمي البدائية، فتستخدم آخر الأسلحة، الصوت العالي

«اسمع بابا طلبة أنا ساكتالك عشان انت راحل كبير وفي مقام أبويا، بس والبي لو ما رجعت عن اللي في دماغك لأكون قابلة لاس أحوك، وهو يتصرف بقى معاك.»

«طلب ما انتي كده كده حتقوليله.»

«معناه إيه الكلام ده؟»

«يعني وهرى صوتك العالي لتربية العيال. وأنا قلت حتجوز الت دي يعني حتجوزها.»

«طلب وحية رحمة أبويا...»

وقبل أن تكمل أمي، وفي غفلة منّا ينحني ويسحب عصاه من تحت سريره، يطيح فينا جميعاً، تسحب سعاد في صمت، قبل أن تكمل تجهيز المسفحة. كانت أقرباً للباب، أما العصا، فقد طالت أمي بضرتين عشوائيتين قبل أن تمسكها من يده بعد أن طوحها، توقفت رحلتها الطائشة عذر كتي، صربت العصا القصرية لتي تحمل الورد البلاستيكي العترب فوق الثلاجة، بعد أن وجد جدي طلبة نفسه محاصراً، وشبه مشلول، تحولت القوة إلى ضعف وبذل الهوى إلى رقة والرهو إلى انكسار وبكاء، بكى جدي طلبة، أحشش واهتر حسده، هي المرة الثانية التي أراه فيها يبكي، كانت المرة الأولى عندما هُدم بيتنا بالبلدوزرات.

خلع جدي الأنه، رجع صاعراً لسيرته الأولى، ارتدى جلببه «البدم» الرصاصي، بطر إليها نظرة بصعب تفسيرها، انزلق تحت سريري كعامل إرادته، صمت صوته واستكن صحبه، لم يبق من أثره بالخارج إلا عصا بني بعوجاية وبلغة لامعة وجلباب كشيمير ولاثة ماركة السبع.

في اليوم التالي أيقظني أمي وهي شاردة، مدت يدها بفلوس فُكَّة،  
وقالت بصوت خفيض بعيدًا عن أذن أبي القرية:

«خذ اشترى بذول كافولة لكبار السن».

لم أسألها لمن هلم يكن أحد في الكشك كُلُّه يحتاج إلى ما تطلبه  
سوى شخص واحد.

أنباء خروجي، رأيتُ «أسس» يجلس على كرسيه المتحرك أمام  
الباب، ينظر في الأرض وأمامه قطعه، نائمة وساكدة، لا تتحرك، أس  
يبتسم ولا يرفع عينيه من عليها خرجتُ أمي وهي تحاول دس كيس  
التفود في عتيها:

«ماتت النهارده الصبح حُدها ادهها معاك وانت رايح.. علشان طول  
ماهو شايعها كده هيمكّر فيها. البس كيس بلاستيك في يديك، أحمر جنب  
سور التراب وحطها. عطسها تحت أوي علشان الكلاب ماتطولهاش».

قالت أمي، ثم دخلت إلى عمق الكشك، وقيل أن أبحث عن كيس  
بلاستيك ألبسه في يدي خرجتُ مرة أخرى لتصيف تعليمات جديدة

«جد أس» معاك. يمكن يدر يعرف إن اللي مات عمره ما هيرجع تاني».

أحدثه معي بعد أن عات قطعه في كيس أمود، عند سور المقابر حفرت  
بها حمرة تكفي كبا، وضعتها بالكيس الأسود، وأهلت فوقها التراب،  
كلما عاصت القطة تحت أكديس الأثرية كال أنس يتسم، وعندما وقعت  
لأدك الأرض فوق قطه، ارداد يتسمه، هلل بيديه الصغيرتين وأشار بكفه  
إلى مكان الدقة، ربما هُيى به أي أحممها، هل يعرف أس معنى الغناء؟  
سحب الكروسي المتحرك الجالس فوقه أخي الكبير وانصرفنا.

عندما عدت، شمت رائحة كريهة تغرب أركان الكشك، كان  
مبعها منامة جدي طلة، أثارته هذه الروائح تحطبات أبي، ألفي أوامره  
و انصرف، تحمل المسؤوليات الحسام يكون عادة من نصيب أبي،  
خففت من إحراج الموقف بكلمات مثل:

«واله، زي بعضه، حصل خير، مالكوش انتم دعوة يس».

أجلس أنا وأبي حارح الكشك، تقوم أبي العتي سحبه المرمية، يرقد  
جدي طلة عليها محذفاً في الفراغ، يستمع إلى حوارنا كاملاً، تناديه أبي  
فلا يرد، تقطع استرساله بالنداء مرة أخرى  
«اصحى بقى يا با طلبه».

ينظر إليها حدي ولا يطق، تعير لون بشرته كثيراً عن الأس قام من  
رقده بصعوبة بعد أن استند إلى حافة السرير، طهره محب شدة كفوس  
تييس رمحه للابد، قعد على السرير، عياه شاحصتان للأرض، لا ينظر إلى

شيء محدد، ربما أصيت ذاكره بمعنى من كثرة الصور التي يحتفظ بها،  
كان من الصعب تخمين ما تحمله بقراته من إيهات، يحاول النهوض،  
يعاقر جسده التالف، يحو الوهج في عينيه الضيقتين، يطفى، أنظر له  
وأنامل السوات وهي تصنع حرائط وأحاديث فوق بشرته، تهدلات تكاد  
من صفعها تسقط لو فكرها.

سحب أني العرنة وتنهصه بالخارج، لمسحها لمسحوق العسيل  
مزين، ترش عليها قطرات كولوب حلاقة من رجاجة قديمة ملعة فوق  
الثلاحة، تحلع ملائتها التي كانت معروشة وترمها في طريق الغسالة،  
تفرش غيرها جليده، تضحك في وجه جدي، وتذكره بمواقف عايشها  
ويعرفها جيداً. كان في دنيا بعيدة، لا يتحرك ولا يمشي، لا يهتم بما يدور  
من حوله، تكمل أبي وصلتها من الترويح عنه بطرف شتى تذكره بأشياء  
سبها، ثم تصحك، وأصحك أنا الآخر، كما كمن يصحك على بكته  
«باينة»، تقتضب الضحكة عندما ننتبه إلى صمته وتكشيرته.

ملاحح جدي ساكة، ترداد انقضاء، يتحول الترويح عنه إلى مأساة،  
أشفق على أبي، فهي المتروطة دائماً فيما تفشل جميعاً فيه.

خلعت عنه ملايسه، وهو شارده ومستسلم، البسته غيرها نظيفة  
ومزخرة وهي تغني

«شاطر يا شاطر يا شطور..»

حلبك جديد وأربك حطور..



عسل يا عسل يا عسل..

اطلب عتيه وزى ما تطلب تنول..».

ترفع يده وتزلها كأنه دمية، تسحب مشطاً كبيراً من فوق الملاحة وتمشط ما تبقى من شعيراته، تسكن ماء في ككة صغيرة، تحلظه بماء بارد حتى يصبح دافئاً كدمعة العين، تمسح وجهه فلا يعمص لغادي الماء، تُشغفه بمشفة كانت على كفتها، تبتسم وهي تُعغم صونها وتهر رأسها، كأنها تلاعب طفلاً:

«يا القصر دا ما اطلع له لو مش حبيبي فيه

يا الفرش دا ما افرشه نايم حبيبي فيه

يا الكحل دا ما اكحله سواد عيونته فيه

يا الفل دا ما أعلقه بياض حبيته فيه

يا الرود دا ما اقطفه حمار خدوده فيه

يا البحر دا ما اشربه سافر حبيبي فيه

يا القمح دا ما انفضه ومن طينه ما اتقيه

إلا في غربال ذهب وأغريل حبيبي فيه».

يُدبم جذي طلبة النظر إلى باب الكشك وهو مقلق، يمسك البلغة التي لقمها بالأسن ويضرب فردتها ببعضهما البعض، يصع قدميه فيها ويقف، يتصب عوده، يقاوم الحاذية الأرضية بصعوبة، يتجه ناحية

الباب، وتقف أمي خلفه لترى ماذا سيفعل، يفتح التراس، يحرج بعد أن تمسك التوسلات والاستمسارات، تمسك أمي بذيل جلبابه القصير فيجده من بدنها بعنف، أصعب يدي على كتفه، في محاولة استرصاء، فيميل كتفه وتترلق يدي..

يخرج حدي طلبة للشارع، تضرب الشمس عينيه، فيصع يده على ماصيته متعادياً أشعتها، يستقر فوق حجر رصيف، نسير أب وأمي وراءه، نتابعه من الخلف، يجلس على حجر رصيف ويخرج من جيب جلبابه العلوي سيجارة، بصعها بين شفتيه، ويسند يده على ركبته متأملاً المارة، يمد قدميه للأمام في تمطية بطيئة، يشير إلى شخص يعتق سيجارته في فمه، يخرجها من بين شفتيه ويعطيه إياها، يشعل جذي سيجارته، يقضي عليها في ثلاثة أنفاس، يرمي القتب وينصرف، يمشي إلى حيث تأخذه قدماء، تتسحب حله أنا وأمي، يراسا، يحني، يلتقط من الأرض طوطاً ورلماً ويقذفنا به، تطلع إحدى القذائف أمي فتخرج خدماً. نمسكه حتى يستمهم عوده، نقيم نظرتة قليلاً، ثم يفيق، يُخلص يده ماءً، يكمل السير في اتجاه عكس الكشك، يجلس على حجر آخر، يحاول أن يستوعب ما فات عليه من أحداثٍ مررت منذ سنوات طويلة.

تنتهي مطار دتنا الحدي، عندما يرتطم بعرة يد يجرها صاحبها وفوقها أشياء قديمة، يقع حدي طلبة على الأرض، ينفرط الطوب والزلط الذي كان يحتفظ به في حجره، ترتطم رأسه بالأرض فيسقط بلا حراك.

أسمع صوت سعاد، هذه المرة كان حزينا، لم يصل من كشتك الأستاذ عبد الشافي سعيد، ولكنه كان في قلب مسكن جدران العجور، أخرج حلف أمني وأنتع أثره، يقف سحان لإيواء كلهم تقرينا أمم ساب الرجل، ملتصقين في طواير غير منتظمة، تشق أمني طريقها، تحمر أحدودا من الصراع وأنا حلفي، تتلاحق أنفاسا عذبا، يصل إلى الباب الصبح في البداية، لا أرى شيئا إلا القعدة الصيني، التي أعطتها أمني للرجل، أدق النظر للقاعدة، أرى فوقها سبيحا يشبه ما يصعه عكوت في بيت مهجور، فلام كاسلاك مسلح ربيعة ومقاطعة، من بعيد تبدو كدخان ثابت في مكانه، أو ظل داهب على حدار، القاعدة لصبي في نهاية الكشتك، والناس يقتربون منها، يتأملون شيئا وهمي فوقها، وأمني تتأمل معهم، وأن أحاري محاولات الحملقة بأقصى دقتي، الجميع يخطون أكتفهم ويحوقلون في جلبة جماعية حزينة.

حتى هذه اللحظات وأنا لا أرى الرجل، فقط أرى أشباحا لعفش شحيح، كبة أنثويه وحيلة فوقها كوبرية متسحة، يحوارها مضدة قصيرة، عليها طبق طعام، حوايه مرسومه بعن أحضر، وتحت المضدة

وانور شرائط وعلبة حلاوة طحينثة مقوحة، وسرير بغيري صغير، قوفة شمعدان حديد مطط بلا شموع بجوار السرير كرسى، فقد مسنده وجزءاً كبيراً من حشيته.

بعد قليل، يتحلّق جميع الموجودات داخل الكشك، بالأدق حول القاعدة، أنامل أكثر، أرى ما تبقى من حاربا العوز، هيكل هش من عظام نخرة وبقايا أسحة كالقتل، يجلس بكامل جرمه، لكن بلا أبعاد، الهيكل مُفَرَّع أتخيل شكل الرجل وهو خالس، يوم أن كان له شحم ولحم، ظهره معني، يذاه مستبدان على فخذه، وقدماه كانتا بالكاد تلمسان الأرض، مكان قدميه ششبه إحدى فرديته مربوطة بسلك، والأخرى ليست في مكانها، ومن حوله بيجامة سترتها واقعة، أما نطلوها بمعظمه ساقط عن القاعدة، نصمه يلمس الأرض، يغطي أتربة ومادّة مشورة كطين جاف مغنت

يتدافع الناس، ويدخل تيار هواء قوي، بتفت الهيكل ويسقط فوق بطلون البيجامة. تصرخ سماد صرخة مكتومة وهي تصع كعها على وجهها، يعتلي ألوحوم ملامح أمي، وتفسح فيها دون أن تصع فوقه طرف طرحتها السوداء.

يقترّب شاب ملتحي يمسك في يده قطعة قماش يفتة.. بواحدة يكنس كل ما وقع على الأرض، وبالأخرى يهرّد قماشة يضاء بضع فيها الكناسة، يصرفها ويغلقها جيّداً، يحرج بها في اتجاه العقابر المواجّهة للأكشاك.

بعد أن شاركت في صلاة الجسارة على جاربنا العجوز عدت إلى الكشك، فوجدت جدي طلة مقرّصاً على الأرض، يعد أصابع قدميه، وفي كل أصبع يقول كلمة لا أفهمها:

«الهيرميس.. الصغير، الصكرجة، الصوايد، الكبير، القادوس»

وتجليني أمي من فراعي:

«جداك راجع».

ولم أفهم:

«يعني إيه؟».

«الحاجات اللي يقولها دي نقى أجراء الساقية. كان وهو قدك كده شغال بحار سواقى. واللى يرجع يا حبيبي ميعتكش إلا أيام عره ويس».

لم يعد حدي طلبة يتذكر حدثًا كاملًا إلا يوم التفتت له الصورة مع الرئيس جمال عبد الناصر، نحتلط في دماغه الأحداث والأرمة، تنقلت الروابط بين الأشياء، تماهت عنده المسافات بين ما حدث وما لم يحدث، أقول له شيئًا يُضحك الحجر ولا تعبير تعبيرانه، وأقف صامتًا فأراه يضحك لسبب أجهلُهُ، بالأمس سألتني:

«انت مين؟».

وقيل أن أرد أجاب هو:

«آء. افكرت. انت ابن الكلب اللي قارقني»

ثم يصمت، ويتأمل بروازًا مكسورًا على الحيطه، وأسأله:

«عاوز حاجة يا حدي؟».

يستغرق مدة طويلة قبل أن يرد:

«هو أنا إيه اللي جابني عندكم أصلا؟».

توَضَّل أمي إلى طريقة للتفاهم معه، تُعلّق في قُبَّته فوطه، تُجنسه على الكسبة، تحضر طبق فَنَّة وتجلس على كرسي أمامه، ما يصل إلى فمه أقل

مما يقع خارجه، ينسم، يرد يدها، يخلق الملوحة عن قَبْته. تتحول ابتسامة جدي طلبة المزروعة إلى صحكة مجلجلة بلا مسبب، يطلع لها صدى صوت، ثم تستقر تكشيرة مخيفة، كال ملامحه تتعرض لسطح ساحر يمتنع حدي عن الطعام بهائيا، ويعقد من وزنه كثيرا، ثم يمنع عن الكلام، ويقول أمي:

« جذك اتسجن ».

لم أفهم، انتظرت قليلا، فأكملت:

«مش حاسس يا حبيبي باللي حواله. رينا يتولى به».

بعد مدة لا أتذكرها سمعت صوته:

«أحب جمع الفتن وأشهد لم رأيت، وكنت حُب صليت، قطعت رقة مؤذن، ومن رحمة الله وليت، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء». أستمع لألغائه، أفكر فيها وأبحث عن حل، يجيبني قل أن أرق نفسي في البحث عن إجابة، يرفع الملاءة ويمط رقبة ويبدأ الشرح.

أحب جمع الفتن... إنما أموالكم وأولادكم فتنة.

وأشهد لم رأيت... أشهد بالله ربي وأنا لم أره.

وكنت حُب صليت... على النبي

وقطعت رقة مؤذن... ذبحت ديكًا وطبخته.

ومن رحمة الله وليت... من المطر هريت وجريت.

ولي في الأرض ما ليس لله في السماء... الزوجة والولد.

أرفع ملاءة السرير لأطعمش على جدي النائم، لا أجد إلا بعلا متربة وشط بلاستيك فارعة، من أين جاءتني الرعة إذا لصناعة بهاية على مراحي لجدي طلة الذي مدت منذ سبع سنوات، وأصبح الآن ترانا؟

تركنا جدي طلبية ولم يعد بإمكانني استعادته إلا عن طريق أشبته «لتي»  
تحتفظ أمي بها، عذاته البلب الرصاصية، أرها خاوية تحتفظ ببعض من  
روحها، علة الدخان التي تركها فارغة من الدخان، ولكنها تعبق برائحة  
يدلها وبالوجه الأحبي المسحوت فوقها ولا أعرف صاحبه، بلعته الشبية  
التي عثر العار لونها، اللاتة ماركة السبع مُعلقة على مسمار في شباك  
«الكشك»، العصاية أم عوحاة هي الأخرى، يتوكل عليها أبي عند الدروم،  
ثم يعلقها في جنبش نازل من سقف الكشك، وفتحي، يلس أحبنا حلاب  
حدي الكشمير في ليالي الشتاء، يعرق فيه كمار يرتدي ملابس قط

احتفظتُ بصورة وحيدة لجدي طلبية، انتزعتها من جلدة بطاقتي،  
صورتها في كارت منفصل، صورة في حجم الكف، يرفع رأسه عائب،  
يشرب عتقه كأنه يحاول رؤية شيء ما يقع ورده لمصور كنت كلما  
تأملت ملامحه أستعثر عند عيبيه، أقول لعسي، عديم يصح لي أولاد  
مأقول لهم أنني رأيت العيون التي رأت الملك فاروق الأول.

سكنت صورة جدي في جيب محفظتي، نامت بها لها أو عديها،  
ويقينا نحن ندور مع الزمن لعنا حلزونية لا أعرف لها أولاً من آخره

ما كان أسي يعمله في بيت، على شاطئ، العاب، ظل يعمله كما هو دون أي تفسير، يلصق أحاديث سوية مصورة ويلقها بسلامة داخل وخارج الكشك، راد عليه فقط أنه أصبح بأمرنا بالعمل أكثر مما يعمل هو به، نُصوّر نحن الورق وشترى اللاصق ونشبه على الأركان، وهو يجلس على كرسي يتابع ميل الورقة، يربها بعينه ويقول:

«أومال عاوزين تدخلوا الجنة يلاش؟».

ومن أجل الجنة كُت بأمره، أنا وفتحي، ندلم ورق الجرائد الذي يحمل شبه كلمات دينية.

«الله محمد. صل على النبي إننا لله وإننا إليه راجعون انتحوا محمد أحمد عبد الله»

حرق الأوراق المقدسة أمام الكشك، وجلس أسي أمام كشك حاربا العجز الذي لم يظهر له أصحاب، كانت تستخدمه لتحريش الكراكيب ونشر المسيل، وبالتعود أصبح من حقا كشكان، واحد بعد اليد والآخر بوضع اليد.

كان أسي يبحث عن لحمة في فرقة موسيقية لا تشعر به ولا تؤمن بموهبته.

يبحث فتحي عن عمل بعد نهاية الدراسة، وأبحث أنا عن ابتسامة يعد أن ركبته سئة صناعية، لا تفرق كثيرا عن أسناني الطبيعية.

## 53

كُت دائم الشعور بأن هناك عين كاميرا غير مرتبة تلصص عليّ، تراقبني وتنازع تصرفاتي من بعيد، ثم تستقل بدني وتسلط على عيري، تهمني من أن يهمني العالم ويطوي السيان. لو أن أياي بُثرت كأوراق الكوتشينة، سأفشل في محاولة إعادة ترتيبها بشكل صحيح؛ فكل الأيام تصلح لتحل محل أيام أخرى. كلها نشبه بعضها إلى حد كبير

حاولت تذكّر حياتي حسب ترتيبها الزمني وفشلت، جميع الشخصيات تركت الحياة الفعلية وعشت في متاهات ذاكرتي، تُخلص الناكسة فقط لما تعرف، ترفض اختراقات التعبير المستمرة، تحتفظ بكل الودائع، تُفرق بين شكل الوردة ولون الدماء، بين التكبر والكبرياء، تُجدول كل شيء في حانات، في الغالب يصاحب تعبيرها إرهاق دائم وشعور بالعجز، كلما تبدلت الحانات أشعر محبة، يأتي كُرت، أو يجب عليّ التوقف للتأمل.

ثمانية سنوات أنمماها ونحن نُقيم في الكشك... ذهب أبي ليتسّم استمارة الشقة، لم تعد مسألة الفوز بشقة تشغلني.

خمس عشرة عاماً قضاهما أبي في القاهرة، لم يستطع التأقلم مع حياة المدينة، ظل مخلصاً للهجته الريفية وذكرىات الأرض الخضراء، يأمل أن يجدد عقده عاماً إضافياً يقضيه عاملاً في سويتش قصر العيني، يجلس أمام حائط أزهار السويتش، ينزع كابل المدير ليوصله برقم الطبيب النوباتجي، أو ينزع كابل غرفة الممرضات؛ ليضعهن في حوار مباشر مع الممارس العام، يستمتع بتعسينته اليومية، وهو جالس بجوار الزجاج نائماً، يتطوح في أتوبيس 52 بشرطتين، رحلة متوسطة ساعة ونصف ذهاباً، ومثلها إياباً، يحمل لمدة عام آخر شنطة خبز ساخن وبيضاً ومربى تبتت من وجبات مرضى القصر البائسين.

لم يستطع أبي طوال كل هذه السنوات التخلي عن عاداته، لم يستغن عن الجلباب البلدي والصديري «أبو» أزهار كثيرة وجيوب واسعة، لم يتخل نهائياً عن البلغة العمولة واللباس البقعة الذي يصل إلى ركبتيه، يشتري أقمشة جلاليه من لون الجلباب القديم نفسه؛ حتى يتجنب الحسد. ينقضي عمر أبي دون أن يدرك له معنى واضحاً، كشخص وقف في طابور طويل، ودون سبب مقنع قرر ترك مكانه لغيره، ثم انصرف يبحث عن الوقوف في طابور آخر.

أفبق من تأملاتي التي تسربت كخيوط دخان.

لمحسبه من بعيد يحمل في يده ورقة انتظرناها طويلاً. رفع دوسيه به أوراق في وجه أمي:

«عقد الشقة»

أجر أبي سيارة نصف نقل، كوّنا عفشنا للمرة الثالثة، سنقل العفش على مرتين. قال إننا سنستقر أخيراً في مدينة ناشئة، تبست في قلب الصحراء، لم أتذكر اسمها، ولا أبي أيضاً كان يتذكر.

تمت

حي الزهور

2014



## عن الكاتب

عمرو العادلي

كاتب مصري

صدر له:

- خبز أسود (مجموعة قصصية) 2008.
  - جوابات للسا (مجموعة قصصية) 2009.
  - فيل يتدرب على الإنسانية (يوميات ساخرة) 2010.
  - إغواء يوسف (رواية) - طبعة ثانية 2014.
  - حكاية يوسف إدريس (مجموعة قصصية) سلسلة كتابات جديدة 2012.
  - كئالوج شندلر (رواية) 2013.
  - الزيارة «ما حدث لعمر سعيد إبراهيم» (رواية) 2014.
  - صباح الخير يا أنا (ديوان بالعامة المصرية) 2014.
- للتواصل:

Amr\_ali\_adly@yahoo.com

## شكر

لولا هؤلاء لما خرج العمل بهذا الشكل.. عماد العادلي. مكاوي  
سعيد. أشرف العشماوي. إبراهيم عبد الرحمن. ندى عمرو.  
لكم جميعاً شكري ومودتي

«كان بيننا فقيرًا وغير أبيق بالمرّة ولكنه نظيف. أما عائلتنا، فمتحدرة من سلالة شريفة، ولكن فقرها (ذكر) ومعدمة، كائننا كنّا ننتمي لأسلاف أكثر رُقيًا في زمن مظمور. غدّدت أُمّي في دماغي فكرة أظن أن بقاياها لا تزال مترسّبة في قعر مخي حتى الآن: الشرفاء دائمًا فقراء. أما الأغنياء فكلهم أولاد كلاب».



لكل منا رحلته فوق الأرض، حسبها رسمت له الأقدار خطاها.. وكل منا يحاول أن يجعل هذه الخطى ذات قدر أكبر من السعادة وقدر أقل من الشقاء.. نحن أمام رحلة مقدسة لعائلة غير مقدسة، تكتسب الرحلة قدسيّتها من إيمان العائلة بالقدر والمقسوم وإدراكها لرسالة عمران الأرض.. بذلك المزيج الرائع من البسمة والشقاء!

عمرو العادلي كاتب مصري وباحث في علم اجتماع الأدب.. صدر له ثلاث مجموعات قصصية: خبز أسود 2008، وجوابات للنساء 2009، وحكاية يوسف إدريس 2012.. وثلاث روايات: إغواء يوسف 2011، وكتالوج شندلر 2013، والزبارة 2014.

